دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	السبيل في ضوء القرآن الكريم : دراسة موضوعية
المؤلف الرئيسي:	عبدالله، رهام محمد شعبان
مؤلفين آخرين:	عنبر، محمود هاشم محمود(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2015
موقع:	غزة
الصفحات:	1 - 210
رقم MD:	694503
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الإسلامية (غزة)
الكلية:	كلية اصول الدين
الدولة:	فلسطين
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم ، السور و الآيات ، التفسير، الخير و الشر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/694503

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الثّاني

ميادين السّبيل في السياق القرآني

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: ميادين الخير.

المبحث الثّاني: ميادين الشر.

المبحث الأوّل: ميادين الخير.

وفيه اثنا عشر مطلبًا:

المطلب الأوّل: القتال في سبيل الله.

المطلب الثّاني: الإنفاق في سبيل الله.

المطلب الثّالث: الجهاد في سبيل الله.

المطلب الرّابع: الهجرة في سبيل الله.

المطلب الخامس: الإصابة في سبيل الله.

المطلب السّادس: الضرب في سبيل الله.

المطلب السّابع: الدّعوة إلى سبيل الله.

المطلب الثّامن: الإيذاء في سبيل الله.

المطلب التّاسع: الإحصار في سبيل الله.

المطلب العاشر: اتّباع سبيل الله.

المطلب الحادي عشر: اتّباع سبيل من أناب.

المطلب الثّاني عشر: الظمأ والنصب والمخمصة في سبيل الله.

المبحث الأوّل: ميادين الخير

تتعدَّدُ ميادين الخير في السياق القرآني لتشمل القتل والإنفاق والجهاد والهجرة والإصابة والضرب والدعوة والإيذاء والإحصار واتّباع سبيل الله واتّباع سبيل من أناب وكذلك الظمأ والنصب والمخمصة، كل ذلك في سبيل الله تعالى والتي ستتناولها الباحثة بالتفصيل خلال المطالب الآتية.

المطلب الأوّل: القتال في سبيل الله.

إنّ القتل في سبيل الله تعالى هو عبادة عظيمة سامية شرعها الله تعالى لعباده حماية لدينهم وأعراضهم وأموالهم، وخصص لذلك أعظم الأجر وجزيل الثواب، فتكاد لا تخلو سورة في القرآن الكريم من الحث على القتال في سبيل الله وبيان ثوابه، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الذِّينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:190).

سبب النّزول:

ذكر الواحدي في كتابه سبب نزول هذه الآية حيث قال: "نزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ رسول اللَّه -ﷺ- لَمَّا صُدَّ عَنِ الْبَيْتِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَةِ، ثُمَّ صَالَحَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَامَهُ ثُمَّ يَأْتِي الْقَابِلَ عَلَى أَنْ يُخْلُوا لَهُ مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَيَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، صَالَحَهُمْ -ﷺ-، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ تَجَهَّزَ رسول اللَّه -ﷺ-، هُوَ وَأَصْحَابُهُ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَخَافُوا أَنْ لَا تَفِيَ لَهُمْ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ، وَأَنْ يَصُدُّوهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَكَرِهَ أَصْحَابُهُ قِتَالَهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فِي الْحَرَمِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الذِّينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا" [1].

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله -ﷻ- المؤمنين بالقتال في سبيل طاعة الله وإعلاء كلمته وإعزاز دينه، وكان ذلك بعد الهجرة إلى المدينة لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم عنه.

---

(1)"أسباب النزول" – (56/1).

وحدد سبحانه للمؤمنين من يقاتلون من المشركين وهم الذّين أعدوا أنفسهم لقتالكم ومناجزتكم وتحققتم منهم سوء النية وفساد الطوية، وهم المكلفون من الرجال غير الشيوخ الذّين لا رأي لهم ولا قتال.

فالآية الكريمة تهييج للمؤمنين وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تلكؤ، وإرشاد لهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرة الحقّ لا من أجل المطامع أو الشهوات [1].

ونهى سبحانه عن قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، وكذلك التمثيل بالقتلى وقتل الحيوانات وقطع الأشجار ونحوها بغير مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، ويلحق بهؤلاء المريض والمقعد والأعمى، فهؤلاء يتجنب قتالهم إلا من قامت الشواهد على أن له أثرًا من رأي أو عملٍ في الحرب يؤازر به المحاربين لينتصروا على المجاهدين[2].

ومن الآيات التّي تحث المؤمنين على الجهاد وتهوّن عليهم المصاعب في سبيل حياة العزة والكرامة قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:246).

في هذه الآية الكريمة يقص –ﷻ– على نبيه محمد –ﷺ– قصة الملأ من بني إسرائيل وهم وجوه بني إسرائيل وأشرافهم ورؤسائهم، وخص الملأ بالذكر لأنهم في العادة هم الذّين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعدما قبض موسى – عليه السلام– فقالوا له عين لنا ملكًا ليجمع متفرّقنا ويقاوم بنا عدونا ونقاتل معه في سبيل الله، وكان السبب في طلبهم هذا من نبيهم أن اتّباع جالوت كانوا قد أخرجوهم من ديارهم وأنزلوا بهم هزائم شديدة، فطلبوا ذلك كي يستردوا مجدهم الضائع وعزهم المسلوب على يد هذا المختار من جهة نبيهم [3].

---

(1)انظر:"جامع البيان" – للطبري (563/3)، "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" –للنسفي (165/1.

(2)انظر: "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (89/1)، "التفسير الوسيط " – للطنطاوي (409/1).

(3)انظر:"تفسير القرآن العظيم" – لابن كثير (665/1).

والقرآن الكريم لم يذكر اسم النبي وجاء بلفظه بصيغة التنكير، وهذا إشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي وإنما المقصود معرفة حال أولئك القوم وما جرى لهم مع نبيهم من أحداث من شأنها أن تدعو إلى الإعتبار والاتعاظ، وهذه طريقة القرآن في سرد القصص لا يهتم بالأشخاص والأزمان إلا بالقدر الذي يستدعيه المقام، أما الاهتمام الأكبر فيجعله لما اشتملت عليه القصة من وجوه العظات والعبر[1].

ويبدو أن هذا النبي كان يتوجس منهم خيفة لأنّه أعرف بطبيعتهم ويتبين ذلك من خلال سؤاله لهم فأراد أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال فقال لهم: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تفوا بما التزمتم من القتال معه فراجعوا أنفسكم وقوتكم قبل أن تطلبوا هذا الطلب لأنه إذا فرض عليكم ثم نكصتم على أعقابكم فإن عاقبتكم ستكون شرًا لا شك في ذلك، فردوا عليه على سبيل الإنكار والتعجب مما قاله نبيهم لهم: وأي صارف يصرفنا عن القتال وقد أخرجنا من ديارنا وحيل بيننا وبين أبنائنا وفلذات قلوبنا فكيف لا نقاتل.

فهم يرون أن الطّريق الوحيد لعزتهم إنّما هو في القتال، وأن هذا الأمر لا مراجعة فيه ولا جدال، وهكذا شأن الجبناء والمغرورين في كل زمان ومكان يرحبون بالمعارك قبل قدومها، فإذا ما جد الجد كذبت أعمالهم أقوالهم وأعطوا أدبارهم لأعدائهم [2].

وبعد ذلك يذكر القرآن الكريم أن نبيهم كان صادقًا فيما توقعه منهم من الجبن والكذب وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فحين فرض الله عليهم القتال بعد أن ألحوا في طلبه أعرضوا عنه ونفروا منه إلا عددًا قليلًا منهم فإنه ثبت على الحقّ ووفى بعهده وعصمهم الله وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه فحازوا شرف الدّنيا والآخرة، وقد توعد الله الذّين نقضوا عهودهم ونكصوا عن القتال عندما فرض عليهم ولكل من يفعل فعلهم ويسير على طريقهم.

فالله –ﷻ– عليم بالظالمين الذّين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك القتال في سبيله تعالى وبترك ما أمرهم الله به بعد أن عاهدوه على عدم الترك[3].

---

(1)انظر "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (107/1).

(2)انظر:"زاد المسير في علم التفسير" – للجوزي (222/1)، "مفاتيح الغيب" – للرازي (501/6).

(3)انظر:"جامع البيان" – للطبري (293/5)، "التفسير الوسيط" – للطنطاوي (565/1).

ومن الآيات التّي يمدح الله –ﷻ– المقاتلين في سبيله قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبصَارِ﴾ (آل عمران:13).

في هذه الآية يخاطب الله –ﷻ– اليهود ويحذرهم ويقول لهم: قد كان لكم أيّها اليهود عبرة عظيمة وعلامة واضحة فيما حصل يوم بدر حيث التقت فرقتان أو جماعتان، جماعة تقاتل في سبيل طاعة الله وهم رسول الله –ﷺ– وأصحابه، وقد كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، سبعة وسبعون رجلًا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلًا من الأنصار.

وكان صاحب راية النبي –ﷺ– والمبارزين علي بن أبي طالب –ﷺ–، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة –ﷺ–، وكانت الإبل في جيش النبي –ﷺ– سبعين بعيرًا والخيل فرسين: فرس للمقداد ابن عمر الكندي وفرس لمرثد بن أبي فهد العنزي، وجميع من استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلًا من المهاجرين وثمانية من الأنصار[1].

وأما الفئة الأخرى الكافرة فهم مشركو مكة ورأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلًا مقاتلًا، وكانت خيلهم مائة فرس.

ومن الملاحظ أن هناك فرق شاسع بين عدد المؤمنين وعدتهم وعدد المشركين وعدتهم، وقد كان المؤمنون يرون كل هذه الكثرة ومع ذلك لم يهابوهم ولم يجبنوا عن لقائهم بل أقدموا على قتالهم بإيمان وشجاعة فرزقهم الله النصر على أعدائهم[2].

يقول الشيخ طنطاوي: "ووصف الله سبحانه الفئة المؤمنة بأنها تقاتل في سبيل الله على سبيل المدح لها والإعلاء من شأنها وبيان الغاية السامية التّي من أجلها قاتلت ومن أجلها تم لها النصر، فهي لم تقاتل من أجل عرض من أعراض الدّنيا وإنما قاتلت لإعلاء كلمة الله ونصرة الحقّ، ووصف الفئة الأخرى بأنها كافرة لأنها لم تؤمن بالحقّ ولم تتبع الطّريق المستقيم بل كفرت بكل ما يصلحها في دينها ودنياها، ولم يصفها بالقتال كما وصف الفئة المؤمنة اسقاطًا لقتال تلك الفئة الكافرة عن درجة

(1)انظر:"لباب التأويل في معاني التنزيل" – للخازن (228/1)، "فتح القدير" – للشوكاني (369/1).
(2)انظر:"مدارك التنزيل وحقائق التأويل" – للنسفي (240/1).

الاعتبار وإيذانًا بأن الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم عند لقائهم للمؤمنين جعلهم بأنهم ليسوا أهلًا لأن يوصفوا بقتال"[1].

وستذكر الباحثة باختصار تأويل القرائتين لكلمة (يَرَوْنَهُم)(تَرَوْنَهُم) وذلك لأهميتها:

فالقراءة الأولى تأويلها: فيرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين ألفين أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفًا وعشرين أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وأما قراءة ترونهم: أي ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة أو مثلي أنفسهم، ولا يناقض هذا ما قال في سورة الأنفال ﴿ **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ (الأنفال:44)،لأنهم قللوا أولًا في أعينهم حتّى اجترؤا عليهم فلما اجتمعوا كثروا في أعينهم حتّى غلبوا فكان التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين، وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية، ولكن هذا التكثير والتقليل واضح وظاهر ومكشوف لا لبس فيه يراه الإنسان بدون أي غموض، وبذلك فقد نصر الله تعالى المؤمنين وأيدهم بنصره فهزموهم وقتلوا صناديدهم وأسروا كثيرًا منهم، وما ذلك إلا لأن الله ناصر من نصره وخاذل من خذله، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار وهم أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة[2].

ويضيف الإمام السعديّ قائلًا: "فالطائفة المنصورة معها الحقّ والأخرى مبطلة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعدة لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته وهو نصره واعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين"[3].

ويمدح –ﷻ– المقاتلين في سبيله ويبيّن عظيم ثوابهم بقوله تعالى: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (النساء:74).

---

(1)"التفسير الوسيط" – (42/2).

(2)انظر:"التفسير القرآني للقرآن" – لعبد الكريم يونس الخطيب (412/2).

(3)"تيسير الكريم الرّحمن" – (123/1).

في هذه الآية يحثُّ –ﷻ– المؤمنين على القتال ويقول لهم: فليتقدم للقتال الذّين لا ينظرون إلى مغنم يبتغونه ولا مال يريدونه وإنما يبيعون الحياة الدّنيا ومتعها وشهواتها ويطلبون ثمنًا وهو الآخرة وما فيها من جنات وعيون ونعيم ثابت ومعها رضوان الله تعالى، وسبيل الله التّي يجب القتال فيها هي سبيل الحقّ وإعلاء دينه وجعل كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء يبيعون أنفسهم لله،والذي يبيع نفسه لله ليفتدي الحقّ وأهله له جزاؤه وأجره العظيم، فإن حاد الذّين مرضت قلوبهم وضعفت نيتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون[1].

ويقول طنطاوي: " وإنما اقتصر سبحانه على بيان حالتين بالنسبة للمقاتل وهي حالة الاستشهاد وحالة الغلبة على العدو، للإشعار بأن المجاهد الصادق لا يبغى من جهاده إلا هاتين الحالتين، فهو قد وطن نفسه حالة جهاده على الاستشهاد أو على الانتصار على أعداء الله، ومتى وطّن نفسه على ذلك ثبت في قتاله، وأخلص في جهاده، وقد قدّم– سبحانه– القتل على الغلب، للإيذان بأن حرص المجاهد المخلص على الاستشهاد في سبيل الله، أشد من حرصه على الغلب والنصر، والتعبير بسوف في قوله ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لتأكيد الحصول على الأجر العظيم في المستقبل"[2].

ومن يتقدم للقتال في سبيل الحقّ وطالبًا رضاه سبحانه فإن قتل واستشهد في سبيل الله أو غلب وانتصر بتأييد الله تعالى له ونال السلطان من الله بالغلب فهو في كلتا الحالين سينال جزاءً عظيمًا، ولا ينال هذا الجزاء إلا من خرج مجاهدًا في سبيل الحقّ لا يبتغي غير رضى الله ولا يبغي علوًا في الأرض ولا تفاخرًا[3].

ويحثّ –ﷻ– المؤمنين على القتال في سبيله للذود عن إخوانهم المؤمنين المستضعفين فيقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الذّين يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء:75).

---

(1)انظر: "الهداية إلى بلوغ النهاية" – لمكي بن أبي طالب (1386/2)، "مفاتيح الغيب" – للرازي (140/10).
(2)"التفسير الوسيط" – (218/2).
(3)انظر:"أضواء البيان" – للشنقيطي (246/1).

في هذه الآية يحرّض سبحانه المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب كما هو واضح في الآية الكريمة فيخاطب الله المؤمنين المأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة في التحريض عليه وتأكيدًا لوجوبه وإنكارًا عليهم في تركه مع توفر دواعيه، فالمعنى: أي شيء جعلكم غير مقاتلين فعدم قتالكم لأعدائكم يتنافى مع إيمانكم، أما الذي يتناسب مع إيمانكم وطاعتكم لله هو أن تقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله ومن أجل المستضعفين من الرجال الذّين صدّهم المشركون عن الهجرة، ومن النساء اللائي لا يملكن حولًا ولا قوة، ومن الولدان الصغار الذّين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وهؤلاء المستضعفين هم الذّين بقوا في مكة بعد هجرة الرّسول -ﷺ- إلى المدينة لعدم قدرتهم على الهجرة أو لمنع المشركين إياهم من الخروج[1]، فيدعو سبحانه إلى القتال في سبيله ولتخليص هؤلاء المستضعفين من ظلم المشركين لهم، وقد خصهم الله بالذكر مع أن القتال في سبيل الله يشملهم لمزيد من العناية بشأنهم للتحريض على القتال بحكم الشرف والمروءة بعد التحريض عليه بحكم الدّين والتقرب إلى الله تعالى، لأن مروءة الإنسان الكريم تحمله على نصرة الضعيف ومنع الاعتداء عليه، فهذا أقوى تحريض على الجهاد وأعظم وسيلة لإثارة الحماس والنخوة من أجل القتال لأنهم إذا تركوا هؤلاء المستضعفين أذلاء في أيدي المشركين فإنهم سيعيرون بهم وهذا ما يأباه كل شريف كريم[2].

وهؤلاء المستضعفين ما انفكوا يتضرعون إلى الله قائلين يا ربنا أخرجنا من هذه القرية التّي ظلمنا أهلها بسبب شركهم وكفرهم وسخر لنا من عندك حافظًا يحفظ علينا ديننا وناصرًا يدفع عنا أذى أعدائنا، فأنت الذي لا يُذل من استجار به ولا يضعف من كنت نصيره ووليه[3].

ويأمر الله -ﷻ- رسوله -ﷺ- بتحريضه المؤمنين على القتال لقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (النساء:84).

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله -ﷻ- نبيه محمدًا -ﷺ- بألا يترك جهاد العدو حتّى ولو كان وحده وترك منفردًا لا أحد معه فإن معية الله خير وأبقى فهو الذي أمره بالقتال وهو الذي تكفل بنصره لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:51)، فالخطاب هنا

(1)انظر:"فتح البيان في مقاصد القرآن" – لأبي الطّيب القنوجي (178/3).

(2)انظر: "التفسير المنير" – للزحيلي (150/5).

(3)انظر:"الموسوعة القرآنية " – لإبراهيم بن اسماعيل الأبياري (321/9)، "صفوة التفاسير" – للصابوني (266/1).

لسيدنا محمد –ﷺ– ولأمته: أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك وكل إنسان ليس مكلفًا إلا عن نفسه، فإن تقدم نفسك للجهاد فإن الله هو ناصرك وليس الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف من الجند، فلا تنظر إلى تباطؤ المتابطئين أو تخذيل المتخاذلين، فالنصر أولًا وأخيرًا من عند الله، وليس عليك بالنسبة للمؤمنين إلا التحريض وأمرهم دون تعنيف[1].

"وقد دلت الآية على أنّه –ﷺ– كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال، لأنه تعالى ما كان يأمره بذلك إلا وهو –ﷺ– موصوف بهذه الصفات، ولقد اقتدى أبو بكر –رضي الله عنه– به، حيث حاول الخروج وحده إلى قتال مانعي الزكاة، ومن علم أن الأمر كله بيد الله وأنه لا يحصل أمر من الأمور إلا بقضاء الله إلا سهل ذلك عليه" [2].

وكذلك يأمر الله –ﷻ– نبيه الكريم بحث المؤمنين على القتال وترغيبهم فيه حتّى ينفروا معه خفافًا وثقالًا من أجل نصرة الحقّ والدفاع عن المظلومين.

فالله سبحانه يأمر رسوله –ﷺ– بالقتال في سبيله وتحريض المؤمنين على ذلك فعسى الله أن يمنع قتال الكافرين وصولتهم وطغيانهم، فالله سبحانه أشد صولة وأعظم سلطانًا وأقدر بأسًا وأشد عقوبة وتعذيبًا، فبأس الكافرين والمشركين لا قيمة له بجانب بأس الله تعالى وقدرته ونفاذ أمره، وعذابهم لغيرهم من الضعفاء لا وزن له بجانب عذابه سبحانه للظالمين، لأن عذابهم لغيرهم يمكن التخلص منه، أما عذابه سبحانه فلا يمكن التخلص منه، ولأن عذابهم لغيرهم سينتهي مهما طال، أما عذابه سبحانه للكافرين الظالمين فهو دائم لا ينتهي ولا يزول، وبهذا التذييل تهديد للكافرين لسوء المصير وتشجيع للمؤمنين على قتالهم وبشارتهم بالنصر عليه[3].

ويبين –ﷻ– أجر المقاتلين في سبيله حيث يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:111).

---

(1)انظر:"تفسير ابن عرفة" – لابن عرفة (42/2)

(2)"مفاتيح الغيب" – للرازي (157/10).

(3)انظر:"بحر العلوم" – للسمرقندي (322/1)، "زاد المسير في علم التفسير" – للجوزي (440/1).

سبب النّزول:

ذكر الواحدي في كتابه سبب نزول هذه الآية حيث يقول: "نزلت هذه الآية في البيعة الثانية وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التّي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله –ﷺ– عند العقبة، فقال عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه– للرسول –ﷺ– : اشترط لربك ونفسك ما شئت، فقال النبي –ﷺ– :**(أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم)**، قالوا: فإذا فعلنا فما لنا؟ قال:**(لكم الجنّة)**، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت الآية"[1].

ففي هذه الآية يخبر الله سبحانه خبرًا صادقًا ويعد وعدًا حقًا بمبايعة عظيمة ومفاوضة جسيمة، فقد صور سبحانه جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثابته سبحانه لهم على ذلك بالجنة صور كل ذلك بالبيع والشراء، فالله تعالى وهو المالك لكل شيء قد اشترى من المجاهدين أنفسهم وأموالهم التّي بذلوها في سبيله وأعطاهم في مقابل ذلك الجنّة[2].

وقد أمرنا الرسول –ﷺ– بالجهاد، فعن أنس –رضي الله عنه– عن النبي –ﷺ– قال: "**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**" [3].

"وقد عبر سبحانه عن قبوله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التّي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها الجنّة بالشراء، ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد: أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنّة. ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال إن الله باع الجنّة للمؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنّة، وما بذله المؤمنون من الأنفس والأموال وسيلة إليها إيذانًا لتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم، وإنه لم يقل للجنة وقال بأن لهم الجنّة مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، فكأنه قيل: للجنة الثابتة لهم المختصة بهم"[4].

---

(1)"أسباب النزول" – (266/1).

(2)انظر:"التفسير الوسيط" – للزحيلي (921/1).

(3)أخرجه النسائي في سننه في كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد حديث رقم(3096)، (7/6) صححه الألباني.

(4)"التفسير الوسيط" – لطنطاوي (409/6).

وكذلك يبين سبحانه الوسيلة التّي توصل المؤمنين إلى الجنّة وهي القتال في سبيل الله، فالقتال في سبيل الله من آثار العقد المبرم بين الله تعالى والمؤمنين، "فالمقاتلة لا تكون في سبيل الله تعالى إلا بشرطين:

أولهما: إخلاص النية: فلا يقاتل لذات الغلب أو الفروسية، إنّما يقاتل لتكون كلمة الله تعالى هي العليا، فالمقاتلة لغير ذلك لا يكون قتالًا في سبيل الله.

و**ثانيهما:** أن يدخل غير مستبق لنفسه: كما كان يفعل المجاهدون الأولون أمثال حمزة وعلي والزبير الذّين يدخلون المعركة فلا يدرون أيقعون على الموت أم يقع الموت عليهم"[1].

فهؤلاء المقاتلون إذا دخلوا في القتال رضوا بمرارته وإرادة النصر وأن تكون إرادة الله هي العليا فيقتلون الكفار في سبيل الله ويُقتلون هم في هذا ولا يحسبون أنهم يخسرون في الحالين: فإن قتلوهم فذلك سبيل النصر، وإن قتلوا سارعوا إلى قبض الثمن في الصفقة التّي عقدوها مع ربّهم، وقد أكد سبحانه أن وعده حقٌّ لا يتخلف لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد، وإذا كنتم قد قدمتم ما عندكم فإن الله تعالى مقدم ما وعدكم [2].

وذكر سبحانه أن جهادكم أيّها المؤمنون مذكور في التوراة والإنجيل والقرآن كما قال تعالى: ﴿ **الذّين يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الّتي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الأعراف:157)، فهذا النص يدلّ على أن الجهاد واجب لأنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدل على أن الذّين آمنوا عليهم أن يعزروه ويؤازروه وينصروه، ولأن الجهاد من اتّباع النور الذي جاء به، وأكد –ﷻ– أنّه لا أحد أوفى بعهده منه،لأنه إذا كان خلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم، فكيف يكون الحال من جانب الخالق –ﷻ– المنزه عن كل نقص، المتصف بكل كمال.

---

(1)"زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (3453/7).

(2)انظر: "المنتخب في تفسير القرآن" – لجنة من علماء الآزهر (280/1).

وإذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح وارضوا به نهاية الرضا، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه[1].

ويقول طنطاوي: "قال بعض العلماء: ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه في صورة عقد عقده ربّ العزة، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل إذا كانوا قاتلين أيضًا لإعلاء كلمته ونصر دينه، وجعله مسجلًا في الكتب السماوية، وناهيك به من صكٍّ، وجعل وعده حقًا، ولا أحد أوفى من وعده، وأشار إلى ما فيه من الفوز والربح العظيم.....ويروى عن الحسن البصري[2] أنّه قرأ هذه الآية فقال: انظروا إلى كرم الله تعالى، أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها في سبيله بالجنة"[3].

ومن الآيات التّي تبين عوامل نصرة المقاتلين في سبيل الله وأنهم يجب أن يكونوا يدًا واحدة وعلى قلب رجل واحد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذّين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف:4).

في هذه الآية الكريمة يحثُّ الله –ﷻ– عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفًا متراصًا متساويًا من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب، به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضًا، ولهذا كان النبي –ﷺ– إذا حضر القتال صف أصحابه ورتبهم في مواقعهم بحيث لا يحصل اتكال

(1)انظر:"التفسير الواضح" – لمحمد محمود حجازي (772/1).

(2)الحسن البصري: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، ولد سنة 21هـ، تابعي كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، شب في كنف علي بن أبي طالب –ﷺ– وكان لا يخاف في الحقّ لومة، وكان في غاية الفصاحة، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف وقد سلم من أذاه، وله كلمات سائرة وكتاب في فضائل مكة، توفي بالبصرة سنة 110هـ.(انظر: "الأعلام" – للزركلي (225,226/2).

(3)"التفسير الوسيط" – (411/6)

بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال [1].

"فالذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة، فلا بدّ لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفًا سويًا منتظمًا، وصفًا متينًا راسخًا..... وهذه الصورة التّي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم وتوضح لهم معالم الطّريق وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق، فهو بنيان تتعاون لبناته وتتماسك وتؤدي كل لبنة دورها وتسد ثغرتها، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها تأخرت أو تقدمت سواء"[2].

بعد هذا الاستعراض لآيات القتل في سبيل الله، نجد أنّه لا يسمى كل قتل في سبيل الله، فالقتل في سبيل الله يكون فقط عند إخلاص النية لله وفي سبيل إعلاء كلمته ونصرة دينه ومساندة نبيه في نشر دعوته الحنيفية السمحة.

المطلب الثّاني: الإنفاق في سبيل الله.

يعدُّ الإنفاق في سبيل الله تعالى من الأمور التّي تقرب العبد المؤمن من ربّه، ومن الأمور التّي حثّ عليها الإسلام ودعا إليها في كثير من الآيات مما يؤكد على أهمية الإنفاق في سبيل الله تعالى وفوائده العائدة على الفرد والمجتمع وكذلك الجزاء الأخروي والرضا من الله تعالى فقد حثّ الإسلام على الإنفاق وأمر الله به فقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:195).

ذكر المزيني سبب نزول هذه الآية فقال: "عن أسلم أبي عمران قال: غزونا القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرّحمن بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتّى دخل فيهم، فقال النّاس: مَهٍ مَهْ، لا إله إلا الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري –رضي الله عنه–: سبحان الله! إنكم لتأولون هذه الآية هذا التأويل، نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيّه –صلى الله عليه وسلم– وأظهر دينه قلنا: هلمّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله –عز وجل–:﴿

(1)انظر: "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" – للشنقيطي (106/8)، "التحرير والتنوير" – لابن عاشور (176/28).

(2)"في ظلال القرآن" – لسيد قطب (3555/6).

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد. فلم يزل أبو أيوب مجاهدًا في سبيل الله حتّى دفن في القسطنطينية فقبره هناك" [1].

في هذه الآية يأمر الله –ﷻ– المؤمنين بالإنفاق في سبيل طاعة الله وإعلاء كلمته ونصرة دينه، وذلك أنهم لما أُمروا بقتال عدوهم في الآيات السابقة لهذه الآية وكان العدو أوفر منهم عدة وعتادًا، أمرهم –ﷻ– بإنفاق الأموال في سبيل الله وعدم الإمساك عنه سواء في الجهاد وغيره، فأمْره –ﷻ– بالإنفاق في سبيله لأن كثيرًا من المسلمين الفقراء كانوا يرغبون في الجهاد في سبيل الله والذود عن منهج الله ورواية العقيدة، ولكنهم لم يكونوا يجدوا ما يزودون به أنفسهم ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب ومركبه، وكانوا يجيئون إلى النبي –ﷺ– يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد الذي لا يبلغ على الأقدام، فإذا لم يجد ما يحملهم عليه﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة:92)، كما حكى عنهم القرآن، فلهذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق في سبيل الله والإنفاق لتجهيز الغزاة[2].

وفي هذه الآية يشير –ﷻ– إلى أمر مهم وهو كما ذكر الرازي "ربما كان ذو المال عاجزًا عن القتال وكان الشجاع قادرًا على القتال فقيرًا عديم المال، فلهذا أمر الله تعالى الأغنياء بأن ينفقوا على الفقراء الذّين يقدرون على القتال"[3] وبذلك ينالهم الأجر والثواب. وقرن سبحانه الإنفاق بقوله ﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾، وذلك لأنَّ المال مال الله فيجب إنفاقه في سبيل الله، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال، والله –ﷻ– لما أمر بالإنفاق في سبيله نهى أن ينفق المسلم كل ماله، فإن إنفاق كل المال يفضي إلى التهلكة عند الحاجة الشديدة إلى المأكول والمشروب والملبوس، فكان المراد منه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان:67) وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(الإسراء:29)، وينهى –

(1)"المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة" – (246/1).
(2)انظر:"جامع البيان" – للطبري (585/3)
(3)"مفاتيح الغيب" (295/5)

ﷻ– عن عدم الإنفاق لأن فيه تهلكة، ويكون الإلقاء باليد إلى التهلكة في الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الإنفاق والجهاد في سبيل الله، فالإمساك عن الإنفاق هو تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف، وترك الجهاد والغزو فيه تقوية للعدو وهلاك للمسلمين، فإن هذا العدو المتربص بهم إذا رآهم قعدوا عن الجهاد غزاهم وقاتلهم وانتصر عليهم فهلكوا، ويأمر الله المؤمنين بأن يرتقوا إلى أعلى مراتب الإيمان وهي الإحسان، فإن النفس إذا وصلت إلى هذه المرتبة فإنها تفعل الطاعات كلها وتنتهي عن المعاصي كلها وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة وفي السر والعلن على السواء، فإنهم إن وصلوا إلى هذه المرتبة فإنّه سيكون مؤيدهم وناصرهم على أعدائهم، ومن أحبه الله أكرمه ونصره وما أهانه وما خذله[1].

ومن الآيات التّي تحث على الإنفاق في سبيل الله قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد:10).

في هذه الآية يقول –ﷻ– للمؤمنين في أي شيء تتركون أيّها المؤمنون الإنفاق في سبيل الله الذي يقربكم منه وهو ماله في الحقّيقة، والحال أنّه لا يبقى لكم شيء منها بل يبقى كله لله تعالى، فأنتم ميتون تاركون أموالكم لغيركم فالأولى أن تنفقوها فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب والمدح ورضا الله –ﷻ– فإنه يا معشر المسلمين لا يستوي منكم عند الله في الفضل من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل أعداء الله مع رسوله –ﷺ– وذلك قبل عزة الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة وقوة الإسلام[2].

وقال الخازن: " إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق –ﷺ– لأنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله"[3].

(1)انظر:"تفسيرالقرآن العظيم" – لابن كثير (529/1)، "في ظلال القرآن" –لسيد قطب (192/1).
(2)انظر:"الجامع لأحكام القرآن" – للقرطبي (241/17)، "التسهيل لعلوم التنزيل" –لابن جزي (344/2).
(3)"لباب التأويل في معاني التنزيل" – (247/4).

فهؤلاء الذّين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الذّين نالوا المشقة أكثر مما نال من بعدهم، فهم أعظم درجة عند الله من الذّين أنفقوا بعد الفتح، ولكن كلا الفريقين المتقدمون السابقون والمتأخرون اللاحقون لهم الثواب الحسن والجزاء الوافر وهي الجنّة مع تفاوت الدرجات والله يعلم كل شيء فيجازيكم على قدر أعمالكم[1].

ومن الآيات التّي تبين جزاء المنفقين في سبيل الله وما أعد الله لهم من الأجر والثواب المضاعف قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الذِّينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:261).

ففي هذه الآية مثل ضربه الله –ﷻ– لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فيقول الحقّ سبحانه: إنّ مثل هؤلاء المؤمنين الذّين ينفقون أموالهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم كمثل حبة من حبات الحنطة أو الشعير أوغير ذلك من نبات الأرض الذي يزرعه ابن آدم ويكون منه قوتهم وأكثر ما يكون في البُر[2].

ويقول ابن كثير في هذه الآية: "وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله –ﷻ– لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد ورد في السنة النبوية تضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف حيث قال ابن مسعود –ﷺ–أن رجلًا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله –ﷺ– : **(لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة[3])**[4] "[5].

---

(1)انظر:"مدارك التنزيل وحقائق التأويل" – للنسفي (434/3)، "محاسن التأويل"– للقاسمي (142/9).

(2)انظر:"جامع البيان" – للطبري (513/5).

(3)معنى مخطومة: أى فيها خطام وهو قريب من الزمام، والخطام: حبل يجعل في طرفه حلقة ثم يقلد البعير ثم يثنى على مخطمه، حيث يتم حز أنف البعير حزًا غير عميق ليوضع عليه الخطام. (انظر: "لسان العرب" – لابن منظور (106/5).

(4)أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، حديث رقم(1892)، (1505/3).

(5)"تفسيرالقرآن العظيم" –(692/1).

فقد شبه الله -ﷻ- الصدقة التّي تنفق في سبيل الله بحبة تلقى في الأرض فتخرج عودًا مستويًا قائمًا تتعلق به سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، أي أنّه يتولد عن هذه الحبة التّي باركها خالق الحب والنوى سبعمائة حبة، فالإنسان المنفق يكافئه الله تعالى على إنفاقه بتلك المكافئة السخية فهو سبحانه المعطي الوهاب، والله -ﷻ- يضاعف أجر الصدقة لمن يشاء من خلقه بحسب إخلاصه في عمله فالله واسع الفضل كثير العطاء لمن أحسن من خلقه عليم بمن يستحق ومن لا يستحق. [1]

فالصدقة لا تنقص المال بل تزيده إلى سبعمائة ضعف لقول النّبي -ﷺ- : **(ما نقصت صدقة من مالٍ)** [2].

ويقول أبو زهرة: "إن الصدقة في سبيل الله تنتج سبعمائة مثل لها لا من حيث الثواب الذي يناله المنفق ممن يملك الثواب فقط بل من حيث النتائج التّي تنتج عنها، فإن نتائج الإنفاق في سبيل الله عظيمة تعود على الأمة بسبعمائة مثل لهذه الصدقة أو تزيد، فإن الإنفاق في سبيل الحرب لإعداد العدة يدفع كيد الأعداء فتنجو الأمة، وفي نتاجتها خير كثير هو أكثر من سبعمائة ضعف من المال الذي أنفق، ومن يعط يتيمًا ويدر عليه من ماله فإنه يربيه، فتكون منه قوة عاملة في الأمة، تأتي من وجوه الخير بأضعاف ما أنفقت في تربيته، ودفع شرًا خطيرًا وهو أن يكون ذلك اليتيم إن لم يتعهد بالتربية الصالحة عنصر تخريب في الأمة، ومن ينشيء مستشفى فإنما يدفع أدواء تعوق القدرة الإنسانية فلا تنتج، فإذا حمى هذه القدرة فقد قدم للجماعة خيرًا كثيرًا لهذا الإنتاج"[3].

ويبشر الله تعالى المنفقين في سبيله الذّين لا يتبعون ما أنفقوه منًا ولا أذىً على من تصدقوا عليهم فيبشرهم بالأجر والثواب وذلك في قوله تعالى: ﴿**الذّين يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِم وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة:262).

---

(1)انظر: "تفسير القرآن العظيم" – لابن كثير (694/1)

(2)أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، باب استحباب العطف والتواضع، حديث رقم(2588)، (ص1002).

(3)"زهرة التفاسير" (972/2).

ففي هذه الآية يمدح الله تعالى الذّين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًا على من أعطوه، فلا يمنون على أحد بقولٍ ولا بفعلٍ، ولا يفعلون مع من أحسنوا إليهم مكروهًا يحبطون به ما سلف من الإحسان.

"فالمنفق لا يستحقّ ثواب الإنفاق إلا إذا كان طيب النفس في عطائه فلا يكون منه أذى ولا رياء، فالصدقة تنتج آثارها في الجماعة مهما تكن نية صاحبها، ولكن صاحبها لا ينال أجر المنفق إلا إذا خلصت نفسه من هذه العناصرالثلاثة: المن والأذى والرياء، فإن النتائج للأعمال وأما الثواب فللنيات"[1].

فهؤلاء المؤمنون الموحدون المنفقون في سبيل الله المخلصو النية لله تعالى في إنفاقهم ولا يمنون على أحد من خلق الله في صدقتهم لهم، وعدهم الله –ﷻ– بالجزاء الحسن والمكافئة لهم على أعمالهم وأنهم لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ولا يحزنون على ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدّنيا وزهرتها، فلا يأسفون على كل هذا، فهم قد صاروا إلى ما هو خير من ذلك، فالسعادة تكون في الآخرة وأما الخوف والحزن فهي في الدّنيا فأبدلهم الله محلها الأمن والسرور[2].

ومن الآيات التّي تذم الذّين يدعون إلى الإنفاق في سبيل الله ولا يستجيبون لأمر الله ورسوله ويبخلون أن ينفقوا من مال الله في سبيله قوله تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد:38).

في هذه الآية يخاطب الله المؤمنين ويقول لهم: ها أنتم أيّها المؤمنون تدعون لتنفقوا جزءًا من أموالكم في سبيل طاعة الله وفي الجهاد والزكاة وطرق الخير، لا كل أموالكم لما يعلم الله تعالى من شح النفس بالمال، ومع ذلك فإن منكم من يبخل بالإنفاق فوصفه الله تعالى بالبخيل لأنه إنّما قد بخل على نفسه في منعها الأجر والثواب وكسبها الوزر والإثم، والله –ﷻ– غني عنكم لا يحضكم على

(1)"زهرة التفاسير" –لأبي زهرة (975/2).

(2)انظر:"مفاتيح الغيب" – للرازي (40/7).

النفقة لحاجته إليها ولكن لحاجتكم أنتم إليها إذ بها تزكُّوا أنفسكم وتقوِّموا أموركم وتنتصروا على عدوكم، وإن توليتم ورجعتم عن الإسلام إلى الكفر والعياذ بالله يستبدل الله بكم قومًا غيركم ويذهبكم ويأت بآخرين ثم لا يكونوا أمثالكم بل يكونوا أطوع إلى الله تعالى منكم وأسرع امتثالًا لما يطلب منهم.

وحاشاهم أن يتولوا وما تولوا ولا استبدل الله تعالى بهم غيرهم، وإنما هذا من باب حثهم على معالى الأمور والأخذ بعزائمها نظرًا لمكانتهم من هذه الأمة فهم أشرفها وأكملها وأطوعها لله وأحبها له ولرسوله –ﷺ–[1].

بعد هذا الإستعراض للآيات الداعية إلى الإنفاق في سبيل الله يتبين لنا أن الإنفاق في سبيل الله من الأعمال التّي يتحقق بها الترابط بين أفراد المجتمع، وبه يقوى على عدوه، كما ويتحقق به التكافل والتآلف بين الأفراد والجماعات، بالإضافة إلى ذلك كله ينمو به المال وتتضاعف الأجور والحسنات ويجني المؤمن في الحياة الدّنيا مرضاة ربّه وفي الآخرة جنّة مولاه.

المطلب الثّالث: الجهاد في سبيل الله.

إنَّ أمر الجهاد عند الله عجيب، وما أُعدّ للمجاهدين أعجب من العجب، فمن هو هذا المجاهد ولماذا نال هذه المنزلة؟ هو ذلك المؤمن الذي يقاتل تحت راية إسلامية ظاهرة فيقتله أعداء الله أو يموت في خضم الرحلة الجهادية فهو في سبيل الله، والآيات التّي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله وعدم القعود عنه أو تركه كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(النساء:95).

مضت سنة القرآن في مزج آيات الأحكام العملية بما يرغّب في الأعمال الصالحة وينشّط عليها ويحفّز الهمم إليها وينفّر من القعود عنها والتكاسل والتواكل فيها، وعلى هذه السنّة جاءت هذه الآية ففيها يبيّن –ﷻ– التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلومًا، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا،

(1)انظر:"الجامع لأحكام القرآن" – للقرطبي (258/16)،"محاسن التأويل"– للقاسمي (480/8)،"أيسر التفاسير" – للجزائري (91/5–92)، .

وتبكيت القاعدين ليأنفوا، نحو قوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذّين يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:9)، فهو تحريك لطالب العلم وتوبيخ على الرضا بالجهل.

فهنا يبيّن سبحانه أنّه لا يستوي الذّين قعدوا عن الجهاد لإعلاء كلمة الحقّ ولم يخرجوا مناصرين له بأنفسهم وأموالهم مع الذّين قعدوا عن ذلك من غير ضرر ملائم لهم كمرضٍ مزمنٍ أو عمىً أو شللٍ، أو الذّين لا يجدون ما ينفقون منه في إعداد العدة ولا يوجد من يقدم لهم السيف والزاد والراحلة [1].

وقد بيّن الله تعالى أولي الضرر في قوله تعالى: ﴿لَّيسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الذّين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿ 91 ﴾ وَلاَ عَلَى الذّين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴿ 92 ﴾﴾(التوبة:91,92)، فلا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلًا بها وحرصًا عليها، وبأنفسهم إيثارًا للراحة والنّعيم على التعب وركوب الصعاب في القتال، مساوين للمجاهدين الذّين يبذلون أموالهم في استعدادهم للجهاد بالسلاح والخيل والمؤنة، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل في سبيل الحقّ لأجل منع القتل في سبيل الطّاغوت، لأن المجاهدين هم الذّين يحمون أمّتهم وبلادهم، والقاعدون الذّين لا يأخذون حذرهم ولا يعدُّون للدفاع عدتهم، يكونوا عرضة لتعدّي غيرهم عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأرض﴾ (البقرة:251)، أي بغلبة أهل الطّاغوت عليها، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة ولا بخلًا إلا مع القدرة، أما مع العجز والضرر كالعمى والزمانة والمرض فلا تبعة فيه حينئذ.

ونجد في هذا النص القرآني الكريم أن الخلاص مع الاستعداد وعدم القدرة على التنفيذ قد يغني عن الجهاد أو على الأقل يسقط المؤاخذة [2].

---

(1) انظر: "الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية" – للشيخ علوان (165/1).

(2) انظر: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" – للبقاعي (371/5).

يقول أبو زهرة: "في هذه الآية إشارة إلى أن الجهاد بالمال جهاد، وأن القعود نوعان: **أولهما:** قعود مادي حسي: بمعنى أن لا يخرج من الدار والعدو متأهب لمنازلة أهل الإسلام أو غزوهم في عقر دارهم، وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا كما قال فارس الإسلام عليّ -رضي الله عنه-، **والثاني:** قعود عن البذل والانفاق في سبيل الحرب، وهذا قعود عن الجهاد بالمال وهو لا يقل خطرًا عن القعود والعدو قد أخذ الأهبة.

ولذلك فقد عدّ القرآن الكريم البخل في هذه الحالة مؤدياً إلى التهلكة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة:195).

ولا شك أنّ أكمل الجهاد ما كان بالمال والنفس، كما هو الشأن في جهاد كثير من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرّحمن بن عوف وغيرهم من كبار الصحابة الذّين كان لهم مال بذلوه وكان لهم بلاء في ميدان القتال فقاتلوا في سبيل الله بأنفسهم"[1].

وإذا كانت المساواة بين القاعد والمجاهد غير سائغة في حكم العقل والشرع، فالفضل في الدرجة للمجاهدين، ولذا قال الله: ﴿ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى﴾، وإذا كان التساوي بين المجاهدين والقاعدين من غير ضرر يمنعهم غير مستساغ فإن الله تعالى فضل المجاهدين بالمال والنفس على القاعدين ذوي الضرر وجعلهم في درجة أعلى من القاعدين لعذر وذلك أن يكون لهم فضل أعظم ومكانتهم عند الله أكرم من ذوي الأعذار، فهم يعرضون أنفسهم للتلف ويقدمون النفيس من المال، ومع ذلك فإن الله تعالى قد وعد كلًا من الفريقين العاقبة الحسنة حيث لا يكون ثمة عقاب يوم القيامة بل يكون النعيم المقيم لهما معًا[2].

وإن تفضيل الدرجة على القاعدين ذوي الضرر لكي يسير القاعد ولو نسبيًا فلا يقعد لضرر وهمي أو عذر غير قهري، فكثير من الناس يتوهمون أعذارًا حيث لا عذر، أما الذّين قعدوا من غير عذرٍ فقد بيّن سبحانه فضل المجاهدين عليهم بأجر عظيم وكثير في مقام الإحسان ومغفرة من الله ورحمة وتبديل سيئاتهم حسنات، وفي هذا النص أشار سبحانه إلى أنَّ الغزو والخروج للجهاد فرض

---

(1) "زهرة التفاسير" – (1814/4) .

(2) انظر: "روح البيان" – للاستنبولي (266/2).

كفاية وليس فرض عين، وذلك إذا لم يكن المسلمون في حاجة إلى كل القادرين، ومهما يكن فالخارجون للجهاد لهم الفضل الأعظم [1].

ومن الآيات التّي يصف فيها –ﷻ– المجاهدين في سبيله أنهم أحبّاؤه وأولياؤه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة:54).

في هذه الآية يخبر –ﷻ– أنّه الغني عن العالمين وأنه من يرتد عن دينه فلن يضرّ الله شيئًا وإنما يضر نفسه، وأن لله عبادًا مخلصين ورجالًا صادقين قد تكفل الرّحمن بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنّهم أكمل الخلق أوصافًا وأقواهم نفوسًا وأحسنهم أخلاقًا، وأجلُّ صفاتهم أنّه يحبّهم ويحبّونه، فإنّ محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسّر له الأسباب وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات [2].

ومن لوازم محبة العبد لربه أنّه لا بدّ أن يتصف بمتابعة الرّسول –ﷺ– ظاهرًا وباطنًا في أقواله وأعماله وجميع أحواله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران:31)، فحبهم لله يزيدهم رسوخًا في الحقّ وقوة على إقامته، وكذلك من صفاتهم أنهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم ونصحهم ولينهم ورفعتهم ورأفتهم ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وهم أعزة على الكافرين بالله المعاندين لآياته والمكذبين لرسله، فقد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم وبذلوا جهادهم في كل سبب يحصل به الانتصار، قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:29)، وهؤلاء المؤمنون الصادقون المحبون لله يجاهدون بأموالهم وأنفسهم وبأقوالهم وبأفعالهم ولا يخافون لومة لائم؛ بل يقدمون رضا ربّهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، فإنّ ضعيف القلب ضعيف الهمة تنتقص عزيمته

(1) انظر: "البحر المجيد في تفسير القرآن المجيد" – لأبي عباس الأنجري (548/1)، "التفسير المظهري" – للمظهري (202/2) .

(2)انظر: "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (235/1)، "فتح البيان في مقاصد القرآن" – لأبي الطيب القنوجي (451/3) .

عند لومة اللائمين وفي قلبه تعبّدٌ لغير الله وما فيها مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتّى لا يخاف في الله لومة لائم [1].

ولمّا مدحهم الله بما منّ عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي منّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله وليعلم غيرهم أن فضل الله ليس عليه حجاب، فالله تعالى واسع الفضل والإحسان جزيل المنن قد عمت رحمته كل شيء ويوسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وفروعًا [2].

ومن الآيات التّي يوضح فيها سبحانه أن الجهاد في سبيله من أعظم الأعمال قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(التوبة:19).

سبب النّزول:

ذكر المزيني في كتابه سبب نزول هذه الآية حيث قال: " عن النعمان بن البشير –ﷺ– قال: كنت عند منبر رسول الله –ﷺ– فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمّر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله –ﷺ– وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة فأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[3].

ففي هذه الآية الكريمة يوبخ سبحانه القوم الذّين افتخروا بالسقاية وسدانة البيت فأعلمهم جلّ جلاله أن الفخر بالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله لا في الذي افتخروا به من السدانة

(1) انظر: "تفسير المراغي" – للمراغي (139/6) .
(2) انظر: "تفسيرالمنار" – لمحمد رشيد رضا (359/6) .
(3) "المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة" – (581/1) .

والسقاية، والمعنى انكار أن يشبه المؤمنون بالكافرين وأعمالهم وأن يسوّى بينهم، وجعل تسويتهم ظلمًا بعد ظلمهم بالكفر، لأنهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما.

فالله –ﷻ– يقول أجعلتم وسيرتم أيّها القوم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون هؤلاء وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما لأن الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملًا [1].

"فمقام المجاهد المؤمن بالله واليوم الآخر مقام عالٍ، ومقام المشرك الذي يكتفي من الشرف بالسقاية والعمارة المادية ويظن ذلك مقربًا إليه زلفى وهو يشرك بالله في عبادته الأنداد، فهم تركوا الجوهر وناقضوه وأخذوا بمظهرٍ باطل لا يغني عن الحقّ شيئًا" [2].

ويقول طنطاوي: "فالله –ﷻ– لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافرًا ولتوحيده جاحدًا، وهو سبحانه لا يوفق القوم الظالمين إلى معرفة الحقّ وتمييزه من الباطل، أي أنهم قد آثروا الشر على الخير والضلالة على الهداية" [3].

وبعد ذلك يبين سبحانه جزاء الهداة الذّين جاهدوا بعد أن آمنوا وهاجروا فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة:20).

في هذه الآية قضاء من الله تعالى بين فِرَق المفتخرين الذّين افتخر أحدهم بالسقاية والآخر بالسدانة والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله كما بيّنتُ في الآية السابقة، فالذين آمنوا بالله تعالى إيمانًا حقًا وهاجروا من دار الإيمان فرارًا بدينهم وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته بأموالهم وأنفسهم هؤلاء هم الذّين توفرت فيهم هذه الصفات الجليلة هم أعلى مقامًا وأشرف منزلة في حكم الله وتقديره من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ومن كل من لم يتّصف بهذه الصفات الأربعة الكريمة وهي الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والجهاد بالنفس [4].

---

(1) انظر: "جامع البيان" – للطبري (168/4) .
(2) "زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (3256/6) .
(3) "التفسير الوسيط" – (233/6) .
(4) انظر: "جامع البيان" – للطبري (176/4).

"والمؤمنون الذّين هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أعظم درجة عند الله من الذّين آمنوا وجاهدوا ولم يهاجروا، والذين آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أعظم درجة عند الله من الذّين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا، وهكذا يتفاوت المؤمنون في منازلهم ودرجاتهم عند الله. وأعلى درجة عند الله للمؤمنين هي درجة المهاجرين الذّين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بعد أن اجتمع لهم الإيمان والهجرة، وقد وعدهم الله بالفوز برضوانه وجناته ينعمون فيها بنعيم مقيم لا ينفد ولا ينقطع أبدًا" [1].

ومن الآيات التّي تدعو إلى النفير في سبيل الله بالمال والنفس قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(التوبة:41).

يقول تعالى لعباده المؤمنين حاثًّا لهم على النفير في سبيله أن ينفروا ويهبّوا للجهاد في العسر واليسر والمنشط والمكره والحر والبرد وفي الصحة والمرض وفي جميع الأحوال.

والإنسان الصّحيح خفيف الحركة ويمكنه أن يقاتل، أما المريض فيفعل كما سيدنا سعيد بن المسيب –ﷺ– وكان مريضًا إذ قالوا له: إنّ الله أعفاك من الخروج إلى المعركة في قوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(الفتح:17)، فقال: والله أكثر سواد المسلمين وأحرس متاعهم [2].

ومن الممكن أن يكون المريض متميزًا بالذكاء وصحة العقل، ويمكن أن يُستشار في مسألة ما، وقد يكون المريض أسوة في قومه فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه، وممكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزًا للأقوياء على القتال، فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم.

---

(1)"تفسير القرآن بالقرآن" – لعبد الكريم يونس الخطيب (720/5) .

(2) انظر: "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (338/1).

ويأمر سبحانه المؤمنين بأن يبذلوا جهدهم ويستفرغوا وسعهم بالمال والنفس، وكما ورد أنّ رسول الله -ﷺ- قال: "**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**"[1]، وهذا دليل أنّه كما يجب الجهاد بالنفس يجب الجهاد بالمال حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك، فالجهاد بالنّفس والمال خير لكم من التّقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله تعالى والفوز بالدرجات العالية عنده والنصر لدين الله والدخول في جملة جنده وحزبه [2].

ومن الآيات التّي يبشر الله -ﷻ- فيها المجاهدين بالهداية والنصر على أعدائهم قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (العنكبوت:69).

في هذه الآية يبشّر -ﷻ- المؤمنين ويسلّي قلوبهم ويذكرهم بأن الذّين جاهدوا في الله ليصلوا له ويتصلوا به واحتملوا في الطّريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا وصبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس وحملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطّريق الطويل الشاق الغريب، أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم ولن ينسى جهادهم، وإنه سينظر إليهم من عليائه فيرضى عنهم، وسينظر إلى جهادهم فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء، ويوفقهم إلى إصابة الطّريق المستقيمة، وهو دين الله الحقّ الذي بعث به محمد -ﷺ-، فالله -ﷻ- مع من أحسن من خلقه فجاهد فيه أهل الشرك، مصدقًا رسوله -ﷺ- فيما جاء به من عند الله بالعون له والنصرة على من جاهد من أعدائه[3].

ويقول النسفي: "وأطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدّين"[4].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) انظر: "تفسير المراغي" – للمراغي (123/1)، "تفسير الشعراوي" – للشعراوي (136/8).

(3) انظر: "جامع البيان" – للطبري (63/20)، "زاد المسير في علم التفسير" – للجوزي (414/3)، "معاني القرآن" – للزجاج (174/4)، "في ظلال القرآن" – لسيد قطب (2752/5) .

(4) "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" – (687/2) .

كما ويصف تعالى المجاهدين في سبيله أنهم مؤمنون صادقون في إيمانهم بالله ورسوله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحجرات:15).

في هذه الآية الكريمة يميّزُ –ﷻ– المؤمنين الإيمان الخالص وهم الذّين صدقوا بالله ورسوله تصديقًا تامًا بالقلب وإقرارًا باللّسان فأقروا لله بالوحدانية ولرسوله –ﷺ– بالرّسالة عن يقين راسخ وإيمان كامل، ثم لم يشكُّوا ولم يترددوا في إيمانهم؛ بل ثبتوا على حال واحدة وهي التصديق المحض بالحقّ مع الاطمئنان النفسي والأمن الذاتي وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد من أجل طاعة الله وابتغاء رضوانه قاصدين بجهادهم وجه الله وإعلاء كلمته ودينه، فهؤلاء المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون في إيمانهم [1].

"ووصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف **الأوّل:** التصديق الجازم بالله ورسوله، **والثاني:** عدم الشك والارتياب، **والثالث:** الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق" [2].

ومن الآيات التّي تبين أن الجهاد خير للمؤمنين قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الصف:11).

في هذه الآية جواب من الله تعالى بنوع التجارة الرابحة مع الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الصف:10)، ونوع هذه التجارة أن تواظبوا على الإيمان بالله ورسوله وتخلصوا العمل له وتجاهدوا من أجل إعلاء كلمته ونشر دينه بالأنفس والأموال، وقدّم الأموال على الأنفس للإعداد الحربي لبدء الاستعداد بها، فتنفقون ما تيسّر من أموالكم في الجهاد، فإن ذلك ولو كان كريهًا للنفس شاقًا عليها فإنه فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعز المنافي للذل، والرزق الواسع وسعة الصدر وانشراحه وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه.

---

(1) انظر: "الوسيط" – للزحيلي (2481/3).

(2) "صفوة التفاسير" – للصابوني (220/3) .

فالإيمان والجهاد خير لكم وأفضل من أموالكم وأنفسكم ومن أنواع التجارات في الدّنيا والعناية بها وحدها إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوه المنافع وفهم المقاصد فإن الأمور إنّما تتفاضل بغاياتها ونتائجها [1].

هذا هو أجر الجهاد، وهذا هو أجر المجاهد، وإنّما كان ذلك لما يحققه الجهاد من علوّ كلمة الله وسيادة أمّة الإسلام على الكون كله، ناشرين دعوة السماء، قاهرين أمم الكفر والطغيان، ملتزمين بالسماحة والأخلاق في جهادهم وقتالهم مبتغين رضا الله والفوز بما عنده من عفو ورضا وجنة النّعيم.

اللّهم هب أمّتك روح الجهاد في سبيل الحقّ، وهبنا رحمة من عندك إنّك أنت الوهاب.

المطلب الرّابع: الهجرة في سبيل الله.

كان المسلمون في بداية الدّعوة في مرحلة ضعف ووهن، فشرع الإسلام لهم الهجرة رحمة بهم حتّى يتمكنوا من عبادة الله على الوجه الذي يرتضيه لهم وهم يأمنون على أنفسهم وأهليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الذّين آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:218).

سبب النّزول:

ذكر المزيني في كتابه سبب نزول هذه الآية والآية التّي قبلها لارتباطها بها وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدّنيا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:217).

حيث قال: "روي أنّه –ﷺ– بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادي الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد عيرًا لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة الطائف، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من جمادي الآخرة، فقالت قريش

(1) انظر: "تفسير المراغي" – للمراغي(90/28)، "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (860/1)، "الوسيط" – للزحيلي (2650/2) .

استحل محمد الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائف وينشغل فيه الناس بمعايشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا لا نبرح حتّى تنزل توبتنا فنزلت، ومن الناس من قال: أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر"[1].

في هذه الآية يطمئن الله تعالى عبد الله بن جحش وأصحابه على أنهم غير آثمين لقتالهم في الشهر الحرام كما شنع عليهم الناس بذلك، وذلك لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم في سبيل الله.

فهنا يصف الله تعالى عباده المؤمنين المقربين المخلصين له بثلاثة أوصاف:

أولها: أنهم آمنوا: فالإيمان تصديق للحق وإذعان لحكمه وتنفيذ لأوامره وإخلاص في القلب ونور في البصيرة، وذلك وحده كاف للجزاء إن قام المؤمن به وحقق لوازمه وخواصه وصار شعاره ومظهره وسريرته وحقيقته.

وثانيها: الهجرة: فقال ﴿**الذّين هَاجَرُواْ**﴾ فلم يقل سبحانه وهاجروا وكرر ﴿**الذّين**﴾ للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب لأنه ترك للمال والأهل وطلب للعزة وإعزاز الدّين بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين، وقد أمر الله بالهجرة عند الاستضعاف ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الذّين تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴿97﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرّجَالِ وَالنّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿98﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿99﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأرض مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رّحِيمًا ﴿100﴾**﴾ (النساء:97/100).

وثالثها: الجهاد في سبيل الله تعالى وهو باب الجنّة وهو رهبانية هذه الأمة، فهؤلاء المؤمنين الذّين جاهدوا المشركين في سبيل الله وفي طاعته[2].

---

(1)"المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة" – (376/1)

(2)انظر:"مدارك التنزيل وحقائق التأويل" – للنسفي (181/1)، "زهرة التفاسير" –لأبي زهرة (635/2).

وبعد ذلك يبين –ﷻ– جزاء هؤلاء المتصفين بهذه الصفات فليس من شأنهم أن يخافوا العذاب لخطأ غير مقصود في الجهاد بل إنهم يرجون الرحمة والثواب ومن رجا طلب ومن خاف هرب، فلا تخافوا في الجهاد إلا الله ومن أخطأ فله أجر، ثم ذيل –ﷻ– الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لبيان أنّه سبحانه يقبل التوبة عن عباده، فيقبل إسلام الكافرين، والإسلام يجب ما قبله، وكما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال:38)، وتقبل توبة العاصي، وإنّ غفران الذنوب تشجيع على الطاعات وهجر للمنكرات[1].

ومن الآيات التّي ميزت المؤمن من الكافر حتّى يهاجر في سبيل الله قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حتّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ (النساء:89).

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى المؤمنين فيقول لهم إن هؤلاء الذّين تتمنون هدايتهم أو تحكمون بها عليهم أو ترجونها لهم، يتمنون أن تكفروا كما كفروا وتجحدوا وحدانية ربكم وتصديق نبيكم محمد –ﷺ– بحيث تكونون أنتم وهم على سواء في الشرك، ومن يود ذلك وتكون هذه حاله لا يعدُّ مسلمًا ولا يحكم عليه بأن نور الإسلام دخل قلبه فهو لا يريد أن تجتمعوا معه على هدى بل يريد أن تكونوا معه على ضلالة، فإذا كانوا يريدون الاتصال بكم اتصال مودة فعلى أساس الكفر لا على أساس الإيمان [2].

فيأمر الله –ﷻ– المؤمنين ألا يتخذوا هؤلاء أنصارًا أو يرتبطوا معهم بصلة أو مودة، فهؤلاء المنافقون الذّين يظهرون الإسلام وهم مقيمون في ديار الأعداء يناصرونهم وقوتهم لهم على المسلمين، فهنا يحسم الله –ﷻ– بهذه الآية أمر المنافقين ويأمر المسلمين بألا يتولوهم وإن آمنوا حتّى يظاهروا إيمانهم بهجرة صحيحة هي لله ورسوله –ﷺ– لا لغرض من أغراض الدّنيا، هجرة مستقيمة ليس بعدها بداء ورجوع، فإن هم تولوا وأبوا الهجرة فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال[3].

---

(1)انظر:"محاسن التأويل" – للقاسمي (109/2).

(2) انظر: "جامع البيان" – للطبري (18/8).

(3) انظر: "الكشاف" –للزمخشري (547/1).

فقد قيّد –ﷻ– ترك ولايتهم بغاية وهي الهجرة وهي خروجهم في سبيل الله تعالى مجاهدين مع المؤمنين ومناصرين ومؤيدين لهم، فإن هم أعرضوا عن الهجرة وهي واجبة فلا تعترضوا إسلامهم لأنهم لا يزالون قوة عليكم، فخذوهم من نواصيهم بالأسر والترصد لمتاجرهم وأموالهم، حتّى لا يتخذوا من ذلك ذريعة لتقوية أقوامهم، واقتلوهم حيث وجدتموهم لأنهم أعداء بمعاونتهم أعداء المؤمنين، فلا تتخذوا منهم خليلًا يواليكم على أموركم ولا ناصرًا ينصركم على أعدائكم[1].

يقول أبو زهرة: "إن السياق يدل على أن المنافقين الذّين تتحدّث عنهم الآية –وإن كان اللفظ عامًا– هم الذّين يظهرون الإسلام في قبائلهم ولا يخرجون إلى المسلمين ليكونوا معهم فإن زمان إنشاء الدولة الإسلامية يحتاج إلى التجمع ليكون المؤمنون أمة واحدة.....، والخلاصة أن أولئك المنافقين يعاملون معاملة الذّين ينتمون إلى دولة أخرى، فإذا كانت دولتهم تقاتل المؤمنين قوتلوا وقتلوا، وإن كانت دولتهم تسالم المؤمنين بميثاق فلا يقاتلوا احترامًا للعهد والميثاق"[2].

ومن الآيات التّي تحث على الهجرة في سبيل الله وتبين أن الخير يكون في الخروج والهجرة في سبيل الله قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:100).

في هذه الآية الكريمة يبين –ﷻ– للمؤمنين أن من يهاجر ويفارق أرض الشرك وأهلها هربًا بدينه منه ومنهم ويترك دار إقامته في سبيل الله تعالى وشرعه ودينه إلى دار الإسلام وأهلها المؤمنين وطالبًا ما عند الله يجد هذا المهاجر طرائق كثيرة في الحياة، فهو يفارق قومه رغم أنوفهم وإن كان لا ينالها إلا ببعض المشقة، وكذلك ينال سعة في رزقه وحياته ودينه فلا يضيق في دينه عليه ولا يعيش في ذلة وهوان أو مُقَتّرٌ عليه في الرزق، فحرص النفس وشحها يجعلها تتخيل أن وسائل الحياة والرزق مرهونة بأرض ومقيدة بظروف ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلًا.

فمن يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحة ومنطلقًا فلا تضيق به الأرض ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة والرزق والحياة، فالآية تحث على الهجرة إذا توافرت أسبابها وتشير إلى أن

(1)انظر: "محاسن التأويل" – للقاسمي (252/3)، "في ظلال القرآن" – لسيد قطب (732/2).
(2)"زهرة التفاسير" – (1791/4).

المهاجر إن ترك محل العيش الرتيب فإنه سيجد في النهاية مذاهب مختلفة للرزق وسعة في الحياة وعدم ضيق فهو معوض بلا ريب[1].

فهذه الهجرة هي الهجرة المعتبرة في الإسلام فليست هجرة للثراء أو هجرة للنجاة من المتاعب أو هجرة للذائذ والشهوات أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة، بل هي هجرة للفرار من فتنة في الدّين أو لدفع الذل وطلب العزة أو للخروج من أرض ليست تحت ولاية الإسلام إلى أرض فيها ولاية الإسلام، أو من أرض فيها ظلم سائد واقع على الأبدان أو المال ولو كانت من ولاية الإسلام، أو كانت الهجرة لتكثير سواد المسلمين في إقليم قل فيه عددهم وهي الانتقال من أرض إسلامية مزدحمة بالسكان قد اكتظت بأهلها إلى أرض إسلامية خالية من السكان فإنها تكون مظنة أن يأخذها أعداء المسلمين فتكون لهم قوة على المسلمين، ففي كل هذه الأحوال تكون الهجرة في سبيل الله تعالى ويكون قد انتقل من حمى الناس إلى حمى الله تعالى، فهو مهاجر منتقل إلى جانب الله تعالى ورسوله –ﷺ–، فإذا كان يترك بيته وأهله وعشيرته وجيرانه الذّين عاش بينهم وعاشرهم فهو يتركهم إلى جانب أعظم ورحاب أوسع وهو جانب الله تعالى ورسوله –ﷺ– ورحابهما، وهذا المهاجر في سبيل الله يناله إحدى الحسنيين: إما بالظفر بالسعة والعزة والمال،وإما الظفر بالأجر العظيم وذلك إن أدركه الموت وهو في الطّريق إلى الله تعالى، فإن أدركه الموت فقد وقع وحق له الأجر العظيم عند الله تعالى، فكأنه صار وثيقة على الله تعالى، وذلك كله تأكيد لتحقيق الأجر بهذه الهجرة، وهذا الأجر غفران لما مضى من ذنبه ورحمة به بالنعيم المقيم في الآخرة، فالله سبحانه غفور كثير المغفرة ومن شأنه الرحمة بعباده[2].

"فبمقتضى رحمته فتح باب الهجرة وحث عليها، وبمقتضى رحمته مكن للمهاجر من السعة والعمل في الأرض، وبمقتضى رحمته اعتبر نيّة الهجرة إذا صاحبها العمل كافية للثواب والأجر العظيم"[3].

ويعقب سيد قطب على هذه الآية فيقول: "إنها صفقة رابحة دون شك، يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى وهي خطوة الخروج إلى البيت مهاجرًا إلى الله تعالى ورسوله –ﷺ–،

(1)انظر:"الجامع لأحكام القرآن" – للقرطبي (348/5).
(2)انظر:"فتح القدير" – للشوكاني (583/1).
(3)"زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (1824/4).

والموت هو الموت، في موعده الذي لا يتأخر والذي لا علاقة له بهجرة أو إقامة، ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت في موعده ولخسر الصفقة الرابحة، فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة بل هنالك الملائكة تتوفاه ظالمًا لنفسه، وشتان بين صفقة وصفقة! وشتان بين مصير ومصير!"[1].

ومن الآيات التّي تؤكد على صدق إيمان المهاجرين في سبيل الله وتبين ثوابهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال:74).

في هذه الآية الكريمة جمع الله تعالى بين الذّين كانوا دعامة الإسلام وعليهم هدي الرّسول –ﷺ– قام بنيانه وشيدت أركانه وهم المهاجرون والأنصار، فالمهاجرون ابتدأ بهم تكوين الجماعات الأولى التّي صبرت وصابرت وتلقت الصدمة الأولى من المشركين، فهم الذّين تلقوها من عتاة المشركين الذّين قابلوا أهل الحقّ بالأذى من أمثال أبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم، وهم الذّين هاجروا إلى الحبشة فرارًا بإيمانهم ومنهم من هاجر مرتين، وهم الذّين لاقوا العنت فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، ومنهم من اضطروه تحت العذاب أن ينطق بكلمة كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم بعض أسرته تحت حر العذاب، ثم في آخر الأمر هاجروا إلى المدينة، فاستقبلهم إخوانهم بالترحاب وآووا ونصروا، والأنصار هم الذّين آووا ونصروا، وأعزوا كلمة التوحيد وأغلوها وأعلوها، فإذا كان المهاجرون هم الذّين أظلوا شجرة الإسلام ابتداءً فالأنصار هم الذّين حموا ثمرتها وقامت دولة الإسلام في أرضهم وحراستهم، وإذا كان المهاجرون قد لاقوا العنت في مكة فقد لاقوا الإيواء في المدينة، وإذا كانوا هم دعامة الإسلام فالأنصار دولته وفي رحابه قامت المدينة الفاضلة التّي أقامها نبينا وحبيبنا محمد –ﷺ– في ديارهم، وإذا كان المهاجرون قد جاهدوا ابتداءً بالصبر والمصابرة فقد كان جهادهم في المدينة مع إخوانهم الأنصار بذلك وفي القتال في المدينة [2].

فالفريقان اختارهما الله لتكوين أطهر جماعة رأتها الإنسانية وأقواها فاستحقوا بذلك وصف الله لهم بأنهم مؤمنون حقًا فهم الذّين هاجروا بعد الإيمان وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووا وناصروا هم

(1)"في ظلال القرآن" – (746/2).

(2)انظر:"لباب التأويل في معانب التنزيل" – للخازن (330/2).

المؤمنون حقًا، فإيمانهم ثابت صادق حيث تلاقت أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم كلها في سبيل دين الله وإعلاء كلمته.

وبذلك قد استثنى سبحانه وتعالى المؤمنين الذّين لم يهاجروا دار الشرك وأقاموا بين أظهر أهل الشرك ولم يغزوا مع المسلمين عدوهم[1].

"وليس الحقّ هنا بمعنى المقابل للباطل حتّى يكون إيمان غيرهم ممن لم يهاجروا باطلًا، لأن قرينه قوله تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدّين فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال:72) مانعة من ذلك، إذ قد أثبت لهم الإيمان ونفى عنهم استحقاق ولاية المؤمنين"[2].

وبعد هذا يذكر –ﷻ– جزاء هؤلاء المؤمنين الصادقين وهو أن لهم جزاءين الأوّل: المغفرة وما تؤدي إليه من الرحمة والنعيم المقيم، والثاني: الرزق الكريم الواسع في الدّنيا بعد المشقة التّي تحملوها.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا عظم رحمة الله تعالى بتشريعه لعباده سبل التيسير في كل وقت عسير، وكانت الهجرة خير مثال على هذا التيسير ورفع الحرج والمشقة، وليس ذلك فحسب، بل وقد جعل لذلك عظيم الأجر ونعم الثواب لمن قام به، فما أعظمه من إله وما أعظمه من دين.

المطلب الخامس: الإصابة في سبيل الله.

إنّ الدخول في حربٍ في سبيل الله تؤدي بالمؤمن المجاهد إلى العديد من الإصابات والجروح، والمؤمن الصابر على الشدائد والمصاعب في سبيل الله لا يجعل من هذه الإصابات والآلام حجرًا يقف في طريق دعوته لله وإكمال جهاده لرفع راية التوحيد وإعلاء كلمة الله، وقد مدح الله –ﷻ– هؤلاء المؤمنين الصابرين في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:146).

---

(1)انظر: "التفسير الحديث" – لدروزة محمد عزت (7/96-97).

(2)"التحرير والتنوير" – لابن عاشور (10/89).

هذه الآية تسلية للمؤمنين وحثّ على الاقتداء بمن قبلهم من المؤمنين من اتّباع الأنبياء السابقين حيث كانوا على إيمان عميق وعزم وثيق، فبيّنت الآية الكريمة ما كانوا عليه حتّى يتأسّى بهم كل ذي عقل سليم فقال لهم: أنّ كثيرًا من الأنبياء قاتل معهم مؤمنون صادقو الإيمان من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، وأصيبوا وهم يقاتلون بما أصيبوا من جراح وآلام، فالقتال يتعاور فيه المقاتلون الجروح والدماء، فليس القتال ريحًا رخاءً سهلًا، بل هو عاصفة وملحمة بشرية يدال بين المقاتلين في الميدان، فكانوا بهذه الجراح راضين صابرين فما وهنوا وما عجزوا أو جبنوا لسبب ما أصابهم من جراح أو ما أصاب أنبياءهم واخوانهم من قتل أو استشهاد، لأن الذي أصابهم إنّما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة رسله، وكذلك ما ضعفوا عن قتال أعدائهم وعن الدفاع عن الذي آمنوا به وما خضعوا وذلوا لأعدائهم [1].

ويقول أبو زهرة: "فالله سحانه قد نفى عن هؤلاء المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف لا تتناسب مع إيمانهم وهي:

أولًا: الوهن وهو اضطراب نفسي وهلع قلبي يستولي على الإنسان فيفقده ثباته وعزيمته، فهو يبتديء في الداخل وإذا وصل إلى الخارج كان ضعفًا وتخاذلًا، وإذا أنتج لضعف نتائجه كانت الاستكانة والذل.

ثانيًا: الضعف الذي هو ضد القوة وهو ينتج عن الوهن.

ثالثًا: الاستكانة وهي الرضا بالذل والخضوع للأعداء ليفعلوا بهم ما يريدون، وذلك ليس شأن المؤمن.

وقد نفى سبحانه هذه الأوصاف الثلاثة عن هؤلاء المؤمنين الصادقين مع أن واحدًا منها يكفي نفيه لنفيها لأنها متلازمة، وذلك لبيان قبح ما يقعون فيه من أضرار فيما لو تمكن واحد من هذه الأضرار في نفوسهم" [2].

وجاء ترتيب هذه الأوصاف في غاية الدّقة بحسب حصولها في الخارج، فإن الوهن الذي هو خور في العزيمة إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذي هو لون من الاستسلام والفشل، ثم تكون

---

(1) انظر: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" – للثعالبي (119/2)، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" – للسيوطي (341/2) .

(2)"زهرة التفاسير" – (1440/3) .

بعدها الاستكانة التّي يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء، وإذا الإنسان وصل هذه المرحلة في حياته كان الموت أكرم له من هذه الحياة [1].

ويختم سبحانه هذه الآية الكريمة أنّه يحب الصابرين، وهو سبحانه يشير إلى أن الذّين لا يصيبهم وهن بسبب اشتداد المعركة ولا ضعف ولا ذل ولا استكانة ولا استسلام هم الصابرون حقًا وصدقًا والله -ﷻ- يحبهم.

فهذا التذييل قصد به حض المؤمنين على تحمل المكاره ومقاساة الشدائد ومعاناة المكاره من أجل إعلاء دينهم حتّى يفوزوا برضا الله ورعايته كما فاز أولئك الأنقياء الأوفياء، فهو تعالى يحب الصابرين على آلام القتال ومصاعب الجهاد ومشاق الطاعات وتبعات التكاليف التّي كلف الله تعالى بها عباده [2].

من خلال ما سبق يتبيّن لنا أنّ المؤمن الحقّيقي يتميز عن غيره في أرض المعركة وذلك ببيان صبره وثباته على الشدائد، فقد مدح -ﷻ- المؤمن المصاب الصابر الذي لم تثنه الإصابات والجروح عن إكمال مسيرته في الجهاد في سبيل الله، ويبتغي من جهاده وصبره أن يرتقي إلى جنان وقصور وأنهار عند الملك الواحد القهّار.

المطلب السّادس: الضرب في سبيل الله.

شرع الله تعالى الضرب في سبيل الله لغرض نشر الإسلام وهداية الناس، فمن اهتدى واتّبع أمن على نفسه وماله وحرم دمه، وصار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وها هو سبحانه يعلم عباده ويمحص غرضهم ويسدد نيّتهم في الجهاد فيقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾(النساء:94).

---

(1) انظر: "التفسير الوسيط" - لطنطاوي (288/2).

(2) انظر: "الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية" - للشيخ علوان (128/1)، " التفسير الواضح" - لمحمد محمود حجازي (292/1).

سبب النّزول:

ذكر المزيني سبب نزول هذه الآية فقال: "عن ابن عباس –ﷺ– قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال: السّلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته فأنزل الله الآية:﴿ **يَا أَيها الذّين آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السّلام لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدّنيا . . . .** ﴾، تلك الغنيمة" [(1)].

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله عباده المؤمنين ويقول لهم: يا أيّها الذّين أذعنوا للحق وصدّقوا به وخرجوا مجاهدين في سبيل الله إذا ضربتم وسرتم في جهادكم فتعرّفوا من يحاربكم ومن يعاديكم ولا تضعوا السيف في موضع البرء والسقم في المقاتل وغير المقاتل، في المحارب وغير المحارب، ولا تتعجلوا بالقتل عند الشك في أن من تقتلونه عدوٌّ أو وليٌّ، فإن الأصل في الدماء التحريم ولا تباح إلا عند الاعتداء، فقد حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحقّ.

وأمر –ﷻ– المؤمنين الضاربين في سبيله أن يتأكدوا ويتثبتوا في كل أحكامهم وأفعالهم وألا يقولوا لمن أظهر الانقياد لدعوتهم ودينهم فنطق الشهادتين أو حياهم بتحية الإسلام فلا يقولوا له لست مؤمنًا حقًا وإنّما قلت ما قلت بلسانك فقط لتأمن القتل، بل الواجب على المؤمنين أن يقبلوا من هذا الإنسان ما أظهره وأن يعاملوه بموجبه، فإن علم السرائر والبواطن إنّما هو لله تعالى وحده [(2)].

فيأمر تعالى عباده المؤمنين ألا يقتلوا الإنسان مبتغين من وراء قتله متاع الدّنيا الزائل وعرضها الفاني، فهذا المسلك يتنافى مع الإيمان الصادق والجهاد الخالص، ومن كان منكم يريد متاع الدّنيا فليطلبه من الله وحده فإن خزائنه لا تنفد وعطاءه لا يحد.

فهو –ﷻ– يوبخهم على حرصهم على متاع الدّنيا بطريقة لا تتناسب مع الإيمان الكامل ومع الهدف الذي خرجوا من أجله وهو إعلاء كلمة الله تعالى وضم أكبر عدد من الناس إلى دعوة الحقّ التّي جاء بها النبي –ﷺ–، فلا تعودوا إلى ما فعلتموه من قتل من ألقى إليكم السّلام طلبًا لماله، فإن

---

(1) " المحرر في أسباب نزول القرآن" – (418/1).

(2) انظر: "ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" – لأبي السعود (218/2) .

الله تعالى عنده مغانم كثيرة وفي مقدوره أن يغنيكم من فضله، فالجؤوا إليه وحده وخصوه بالسؤال وأخلصوا له العمل [1].

فكذلك كنتم أيّها المؤمنون مثل حال المشركين الآن من جحود بالحقّ وكفر به حتّى هداكم الله تعالى، وإذا كنتم كذلك فتبينوا حال الذّين تقاتلونهم عسى أن يكونوا قد هدى الله بعضهم كما هداكم، وأن يكون قد منّ عليهم كما منّ عليكم فلا تستكثروا على مشرك أن يؤمن ولو كان ذلك في حومة الوغى، فتنّور الهداية مفتوح في كل مكان لا يغلق باب دونه والله يهدي من يشاء [2].

فالمؤمنون كانوا عند دخولهم الإسلام لا يظهر منهم للناس إلا ما ينطقونه بالشهادتين وتبادل تحية الإسلام، فمنّ الله على هؤلاء المؤمنين بأن قبل منهم تلك المرتبة وعصم بها دماءهم وأموالهم ولم يأمر بالتفحص عن سرائرهم، فعليكم يا عباد الله الضاربين في سبيله أن تفعلوا كذلك بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكانة ولا تقولوا إن تهليل هذا لاتقاء القتل لا بصدق النية فتجعلوه سبيلًا إلى استباحة الدماء والأموال وقد حرمهما الله.

فتبيّنوا يا عباد الله نعمه عليكم وداوموا على شكرها وقيسوا أحوال غيركم بماسبق من أحوالكم واقبلوا ظواهر الناس بدون فحص عن بواطنهم ولا تصدروا أحكامكم عليهم إلا بعد التثبت والتأكد من صحتها، ولا تشهروا سيوفكم في وجوههم إلا بعد التأكد من كفرهم وعدوانهم فإن الله تعالى مطلع على دقيق الأمور وجليلها، خبير بما تسره نفوسكم وما تعلنه، لا يخفى عليه شيء من ظواهركم وبواطنكم وسيحاسبكم على كل ذلك وسيجازيكم بما تستحقونه من خير أو شر [3].

هكذا يعلّم الله تعالى عباده، ويحثّهم على التّأنّي وعدم التسرّع، حفظًا لأرواح بريئة ونفوس زكيّة قد تكون آمنت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا.

---

(1) انظر: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" – للبقاعي (367/5).

(2) انظر: "الدر المنثور في التفسير المأثور" – للسيوطي (634/2) .

(3) انظر: "الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية " – للشيخ علوان (164/1)، "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (195/1) .

المطلب السّابع: الدّعوة إلى سبيل الله.

إنّ الله –ﷻ– أرسل رسله بالهدى ودين الحقّ لغاية عظمى وهدف أجلّ، وهو هداية النّاس، ولمّا كان الإكراه والترهيب لا يصفّي القلوب ولا يهذب النفوس، أمر الله تعالى رسله بالدعوة إليه بأحسن الطّرق وأرقى الوسائل حتّى يدخل النّاس طواعية في أمر الله وشريعته، وكذا على عباده السير على ذات الطّريق مقتدين بالأنبياء السابقين، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:125).

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله –ﷻ– نبيه الكريم –ﷺ– ويقول له: ادع مبلّغًا رسالة ربك ومتبعًا سبله وهدايته ودينه وشريعته التّي هي هداية الإسلام، وذلك بالأقوال المشتملة على العظات والعبر التّي ترقق القلوب وتهذب النفوس وتقنعهم بصحة ما تدعوهم إليه وترغبهم في الطاعة لله تعالى وترهبهم من معصيته –ﷻ–، فيجب عند الدّعوة مراعاة مقتضى الحال ومخاطبة كل قوم بما يعرفون وأخذهم بالرّفق والتلطف واختيار الوقت المناسب للموعظة التّي يراد وعظهم بها حتّى تتقبلها النفوس وتنتفع بما فيها من خير.

وكذلك يأمر الله تعالى حبيبه المصطفى بمجادلة المعاند منهم بالطريقة التّي هي أحسن الطّرق وأجملها بأن تكون المجادلة مبنية على حسن الإقناع وعلى الرفق واللين وسعة الصدر، فإن ذلك أبلغ في إطفاء نار غضبهم وفي التقليل من عنادهم وفي إصلاح شأن أنفسهم وفي إيمانهم، بأنك إنّما تريد من وراء مجادلتهم الوصول إلى الحقّ دون أي شيء سواه [1].

ويقول طنطاوي: "وبذلك نرى أنّ الآية الكريمة قد رسمت أقوم طرق الدّعوة إلى الله وعيّنت أحكم وسائلها وأنجعها في هداية النفوس، إنها تأمر الدّعاة في كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم إلى سبيل الله لا إلى سبيل غيره، إلى طريق الحقّ لا طريق الباطل، وإنها تأمرهم أيضًا أن يراعوا في دعوتهم أحوال الناس وطباعهم وسعة مداركهم وظروف حياتهم وتفاوت ثقافاتهم، وأن يخاطبوا كل طائفة بالقدر الذي تسعه عقولهم وبالأسلوب الذي يؤثر في نفوسهم، وبالطريقة التّي ترضي قلوبهم

(1) انظر: "اللباب في علوم الكتاب" – لأبي حفص النّعماني (188,187/12) .

وعواطفهم، فمن لم يقنعه القول المحكم قد تقنعه الموعظة الحسنة، ومن لم تقنعه الموعظة الحسنة قد يقنعه الجدال بالتي هي أحسن" [1].

وإنما تفاوتت طرق دعوته –ﷺ– لتفاوت مراتب الناس فمنهم خواص هم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعاني، قوية الانجذاب إلى المباديء العالية لا إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يدعون بالحكمة في المعنى السابق، ومنهم عوام أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد شديدة الألف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، لكن لا عناد عندهم، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة بالمعنى المتقدم، ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحقّ لما غلب عليه من تقليد الأسلاف ورسخ فيه من العقائد الباطلة، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر بل لا بدّ من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال لتلين عريكته وتزول شكيمته، وهؤلاء الذّين أُمر –ﷺ– بجدالهم بالتي هي أحسن [2].

فالدعوة إلى الله تعالى لا تحتاج إلى قوّة قاهرة توجه إليها الأبصار وتفتح لها العقول والقلوب، فإن القوة هنا تضرّ ولا تنفع، حيث إنّ العقل هو المدعو إلى التعرف على الله والإيمان به، وليس سبيل العقل إلى العلم والمعرفة هو القهر والقسر، وإنما سبيله النظر والاقتناع في جو من الحرية المطلقة البعيدة عن الضغوط المادّية والمعنوية، فالايمان الذي يكون تحت أي مؤثّر خارجي يحتل العقل أو يقهره هو إيمان مقهور لا يطمئنّ إليه القلب ولا تتأثر به المشاعر، ولا يجني منه صاحبه ما يجني المؤمنون من إيمانهم من ثمرات طيبة مباركة، ولهذا كان أمر الله –ﷻ– إلى نبيه الكريم أن تكون دعوته قائمة على هذا المنهج الذي يمثّل الكمال كله في غرس المعارف وتربية النفوس [3].

والله سبحانه هو وحده العليم بمن ضلّ من خلقه عن صراطه المستقيم، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السّبيل الحقّ، وسيجازي كلّ فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب، وما دام الأمر كذلك فعليك –أيّها الرّسول الكريم– أن تسلك في دعوتك إلى سبيل ربك الطّرق التّي أرشدك إليها من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، والله سبحانه هو أعلم بهم، "فمن كان فيه

---

(1) "التفسير الوسيط" – (263/8).

(2) انظر: "روح المعاني" – للألوسي (487/7).

(3) انظر: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" – للبقاعي (280,281/11) .

الخير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عن الحيل وكأنك تضرب منه في حديد بارد" [1].

ففي هذا التذييل تهديد لأولئك الذّين يجادلون بغير علم وبغير غاية إلا المراء والإعنات، فالله أعلم بهؤلاء الضالين عن سبيله، لا يجتمعون مع المهتدين ولا ينزلون منازلهم، بل يعزلون عنهم ويلقى بهم في عذاب السعير [2].

وهكذا يتجلّى لنا الطّريق الأمثل للدعوة إلى الله، حيث بيّنت هذه الآيات وفصّلت، ويسّرت على الداعية المسلم طريق دعوته، فعليه أن يستبصر الناس ويتعرّف أحوالهم ثم يخاطبهم بما يناسبهم ويدعوهم إلى طريق الحقّ والرشاد متوكلًا على خالقه وهاديه.

المطلب الثّامن: الإيذاء في سبيل الله.

إنّ إعلاء كلمة الله ورفع رايته ونشر دعوته لا يكون على طريق مليء بالورود والترحيبات، بل يكون في طريق مليء بالشوك والعثرات والاضطهادات، فالإنسان المؤمن يتأذى في سبيل نشر هذه الدّعوة المباركة بكل أنواع الأذى والتي من المحتمل أن تؤدي بحياته أو تجعله يفقد مالًا أو أهلًا أو حتّى عضوًا من أعضائه، ولكنه صابر محتسب لكونه يعلم عن يقين ما ينتظره من أجر عظيم ورضى الكريم الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة.

وقد مدح سبحانه هؤلاء الصابرين وأعدّ لهم من النعيم المقيم ما يكافئ صبرهم وأكثر، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران:195).

في هذه الآية الكريمة جواب من الله تعالى للمؤمنين على سؤالهم في سياق دعائهم لربهم وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴿ 190 ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ

(1) "الكشاف" – للزمخشري (644/2) .

(2) انظر: "الوسيط" – للزحيلي (1313/2).

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴿191﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿192﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴿193﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴿194﴾﴾ (آل عمران 190–194)، فيبشر سبحانه هؤلاء الداعين أنّه قد أجابهم بما دعوا به ربّهم، وإجابة الله لهم دليل على استحقاقهم لرحمته، وقد أجابهم سبحانه إجابة تدلّ على كمال عدله، وأنه سبحانه لا يضيّع عمل عامل منهم، بل سيجازيهم بالجزاء الأوفى وسيمنحهم الثواب فوق ما عملوا، لأنه هو الكريم الوهّاب ولن يفرّق في عطائه بين ذكر وأنثى، لأنّ الذّكر من الأنثى والأنثى من الذّكر، وقد خلقهم الله جميعاً من نفس واحدة [1].

"وبعد ذلك يبيّن سبحانه الأعمال الصالحة التّي استحقّ بها هؤلاء الأبرار حسن الثّواب منه واستحقوا بها نعيم الجنّة وتوقّوا بها عذاب النار، وهي أمور ثلاثة آخذ بعضها بحجز بعض ومتلاقية في معناها ومغزاها:

الأوّل: أنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم، فهم هجروا مغانيهم التّي تربّوا فيها غير راغبين ولا محبّين للخروج بل مُلجئين مُضطرّين..... فمن الناس من يخرج من ديار الشرك أو الكفر مختارًا ليكون قوة لأهل الإسلام، ومنهم من يخرج اضطهادًا وإيذاءً كما فعل كفّار اليوم باللاجئين.

والثّاني: هو أنهم تحملوا الأذى في سبيل الله تعالى، فهم أوذوا في مكة قبل الهجرة، واستمرّ الإيذاء بعدها، وكل ذلك في سبيل الله وفي سبيل الحقّ وإعلائه وجعل كلمته هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى، وأن يزكّي الخير فيهم، فإنهم ما أخرجوا من ديارهم وهجروا أحبّاءهم وذويهم إلا في سبيل الله.

والثّالث: أنهم قاتلوا في سبيل الله تعالى فجاهدوا الأعداء واستشهدوا في هذا القتال، فلهم فضلان: فضل القتال والتقدم وفضل الاستمرار فيه والشهادة في سبيل الحقّ" [2].

---

(1) انظر: "بيان المعاني" – لعبد القادر العاني (448/5).

(2) "زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (1556/3) .

وقد بيّن سبحانه جزاء هؤلاء المهاجرين والذين أوذوا في سبيل الله والذين قاتلوا وقتلوا، فقد وعدهم الله تعالى بالأجر العظيم وذلك بأن يمحو عنهم ما ارتكبوه من سيّئات وأن يستر عليهم حتّى تعتبر هذه الذنوب نسيًا منسيًا، وكذلك سوف يدخلهم جنّات تجري من تحت قصورها الأنهار التّي فيها العسل مصفّى وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وسوف يثيبهم ثوابًا عظيمًا من عنده، فهو -ﷻ- عنده حسن الجزاء لمن آمن وعمل صالحًا، فالله سبحانه قد منح هؤلاء الأخيار الأجر الجزيل لأنهم قد هاجروا من الأرض التّي أحبوها إلى غيرها من أجل إعلاء كلمة الله وأخرجوا منها مضطرين لا مختارين فرارًا بدينهم ولأنّهم قد تحمّلوا الأذى في سبيل الله، ولأنهم قد جاهدوا أعداء الله حتّى استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمته [1].

حقًا إنّ نشر الدّعوة يحتاج إلى رجال يتحملون أي أذى يصبّ عليهم من كل من يخالفهم، ويحتاج قلوبًا واثقة بنصر الله وجنته، فلا تلين عزائمهم لأذىً أو كلامٍ سمعوه، لأنهم سمعوا كلام ربّهم فاطمأنّت قلوبهم، وتذكروا عذاب الله فصبروا على عذاب قومهم.

المطلب التّاسع : الإحصار في سبيل الله.

إنّ المحصرين في سبيل الله لهم الجزاء العظيم والأجر والثّواب من الله تعالى فهم حصروا أنفسهم لله وبالله فجازاهم الله أحسن الجزاء ودعا كلّ عباده المؤمنين إلى مساعدتهم ونصرتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الذّين أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأرض يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:273).

في هذه الآية يخصّ -ﷻ- طائفة من المؤمنين هي أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بعدة صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة في إكرام أفرادها وسدّ حاجتهم، فقد وصفهم الله تعالى بالفقراء ووجّه المؤمنين إلى أن يجعلوا نفقتهم وصدقتهم لهؤلاء الفقراء ووصفهم كذلك بأنهم محصورون في سبيل الله، فهم الذّين حبسوا أنفسهم للجهاد أو العمل في مرضات الله كطلب العلم، إذ لو اشتغلوا بالكسب مثل غيرهم لتعطلت المصلحة العامة، فهم فداء الأمة وحماتها، قادتها الموجهون لها في وقت السلم والحرب، وفي الشدة والأزمة أو المحنه، والرفاه والسعادة، فقد نزلت

(1) انظر: "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" – للثعلبي (235/3)، "أوضح التفاسير" – لمحمد الخطيب (88/1).

هذه الآية في أهل الصفة: وهم فقراء المهاجرين الذّين كانوا حوالي أربعمائة رجل، وكانوا مرابطين في سقيفة المسجد يتعلّمون القرآن في الليل ويجاهدون في النهار [1].

وقوله سبحانه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تكريم وتشريف لهم، أي أنّ ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب ايثارهم إعلاء كلمة الله على أي شيء آخر، ففي سبيل الله هاجروا، وفي سبيل الله تركوا أموالهم فصاروا فقراء، وفي سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد، وفي سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم سبحانه بأدائه [2].

ومن صفاتهم كذلك أنهم عاجزون عن الكسب لا يستطيعون ضربًا في الأرض، أي لا يتمكنون من القيام بالسّفر أو السير في البلاد للتجارة والكسب وعجزهم لأسباب عديدة منها: الكبر والشيخوخة ومنها المرض والخوف من العدو ونحو ذلك من الضرورات.

بعد ذلك يصفهم سبحانه بإظهار العفة والترفع عن الطمع مما في أيدي الناس حتّى إن الجاهل لحقيقة حالهم يظنهم أغنياء لعفّتهم وصبرهم وقناعتهم وتعفّفهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، ولهم صفات تلازمهم وقرائن مميزة لهم فيعرفون بسيماهم وعلاماتهم، والتعرف عليهم يحتاج إلى فراسة المؤمن وخبرة المجرب وحنكة ذوي البصيرة والتحري عنهم بالسؤال لمن يعرفهم من جيران وأقارب لربما يُستأنس بمظاهر الضمور والنحول والضعف ورثاثة الثياب، وربما لا يكون ذلك دليلًا مقنعًا فقد يتظاهر بعضهم بالفقر، وقد يكتسي بعضهم اللباس المعقول لعزة نفسهم ويكون هو المحتاج وغيره هو الكاذب، وقد ذكر القرآن الكريم أن من شدّة تعففهم أصبح التّعفّفُ صفة ثابتة لهم، فهم لا يسألون الناس إلحافًا ولا غير إلحاف، فهم متعففون عن المسألة عفة تامة [3].

ويقول الأستاذ سيد قطب: "والنّص عام، ينطبق على سواهم في جميع الأزمان، ينطبق على الكرام المعوزين، الذّين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب قهرًا، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون، إنهم يتجملون كي لا تظهر حاجتهم يحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء في تعففهم، ولكن ذا

---

(1)انظر : "النّكت والعيون" – للماوردي (347/1)، "فتح البيان في مقاصد القرآن" –لأبي الطيب القنوجي (135/2).

(2)انظر : "التفسير الوسيط" – لطنطاوي (627/1).

(3)انظر : "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" – لابن عجيبة (306/1) ، "لطائف الإشارات" –للقشيري (210/1) .

الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ما وراء التّجمل، فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم وهم يدارونها في حياء، إنها صورة عميقة الإيحاء تلك التّي يرسمها النص القصير لذلك النموذج الكريم، وهي صورة كاملة ترتسم على استحياء، وكل جملة تكاد تكون لمسة ريشة، ترسم الملامح والسمات، وتشخص المشاعر والانفعالات" [1].

ويختم سبحانه الآية بتحريض المؤمنين على البذل والسّخاء وترقية النفس على الشعور بمراقبة الله، وعلى محبة فعل الخير، فما ينفقه هؤلاء المؤمنون على المحصرين في سبيل الله سواءً كان المنفَق قليلًا أم كثيرًا، سرًّا أم علنًا فإنّ الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثّواب وأعظم العطاء [2].

بعد هذا نجد أنّ العبد الصّادق في إيمانه ينصر الله –ﷻ– وينصر عباده المخلصين المتفرغين لجهاده، فنصرة هؤلاء ولو بالقليل هي نصرة لله –ﷻ– ولها أجرها العظيم وثوابها الجزيل.

المطلب العاشر: اتّباع سبيل الله.

إنّ سبيل الله تعالى هو السّبيل الحقّ، ويلزم كل إنسان أن يتّبعه، فالإنسان المؤمن لا يتوانى عن اللحاق بركب الصالحين واتّباع سبيل الله، لأنه موقن أنّه الطّريق الصّحيح الموصل للجنان المبعد عن النّيران، وقد دعا سبحانه إلى اتّباع سبيله في قوله تعالى:﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلى ربّه سَبِيلًا** ﴾(الفرقان:57).

في هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه نبيّه محمدًا –ﷺ– ويقول له: قل لهم يا أكرم الخلق حقيقةً وأعدلهم طريقة محتجًّا عليهم لإزالة ما يكون موضعًا للتهمة: فقد قالوا وأشاروا وصرّحوا أنّه يريد سيادة دنيويّة في جاهٍ يبتغيه أو مالٍ يتموّله، فالنبيّ –ﷺ– هو الذي يتولى الردّ وهو أنّه لا يسألهم على هذا الإرشاد والتوجيه الذي يدعوهم به إلى ترك الأوثان وعبادة الله تعالى وحده أي أجر وإن فائدة هذه الدّعوة لكم إذا اهتديتم وتعود عليكم بالعقاب إن كفرتم.

ولكنه استثنى من الأجر واحدًا فهو لا يسألهم أجرًا يدفعونه أو يؤدونه إلا ابتغاء من شاء أن يتخذ إلى ربّه منهاجًا مستقيمًا وطريقًا موصلًا إلى ربّه، فإن ذلك هو الأجر الذي يبتغيه وهو نعم الأجر

---

(1)"في ظلال القرآن" – (316/1) .

(2)انظر : "البحر المحيط في التفسير" – لأبي حيّان الأندلسي (700/2).

ونعم الجزاء، فيكون الكلام دالًا على مطلبه –ﷺ– ودالًا على شرف الغاية التّي يبتغيها، فليس يطلب مالًا ولا جاهًا ولكن يطلب هداية وتوفيقًا وإرشادًا، فاتخاذ سبيل الله هو المطلب والغاية وموضع الدعاية والدعوة [1].

ويقول أبو زهرة: "وفى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ إشارات بيانية ثلاث:

الأولى: التعبير بقوله: ﴿مَن شَاءَ﴾ إشارة إلى أن الثّواب لَا يكون إلا بالإرادة الحرة المختارة، إذ هي أساس التّكليف.

الثانية: التعبير بقوله: ﴿يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾التعبير بالرب توجيه إلى أنّه الخالق المربي القائم على الخلق، ففي ذلك دعوة للاتّباع المدرك، شكرا لنعمة اللَّه تعالى عليه.

الثالثة: وصف الهداية بأنها اتخاذ السّبيل؛ لأنه المنهاج، وهو ﴿سَبِيلًا﴾، وكان التنكير لبيان أن السّبيل المطلوب هو ما كان إلى اللَّه تعالى" [2].

فيوجّه الله تعالى عباده إلى اتخاذ سبيله فيقول لهم انظروا إلى المنهج الذي جاءكم به نبيكم الكريم –ﷺ–وكيف أنّه يريحكم مع أنفسكم، ويريحكم مع المجتمع، ويريحكم مع ربكم –ﷻ–، ويريحكم من شرور أنفسكم ومن شرور النّاس جميعًا، فمنهج الله وسبيله الذّي جاء به النبيّ –ﷺ– يحرس الإنسان ويحميه في نفسه وماله وفي عرضه وفي كلّ ما يملك، ولا يحميه من فئة معينة إنّما يحميه من النّاس أجمعين، بل إنّ هذه حماية منهج الله وسبيله لك لا تقتصر على الدّنيا وإنّما تتعدى إلى الآخرة فتحميه فيها حماية ممتدّة لا نهاية لها [3].

فالواضح من كلّ هذا أنّ الرّسول –ﷺ– لا يطلب على تبليغ الرسالة من الأموال أجرًا إلا أنّه يطلب المنزلة عند الله تعالى بالإيمان والطاعة كما يدعو إليهما، وكذلك من شاء أن ينفق أمواله ليتقرّب إلى ربّه بالصدقة والإنفاق في الجهاد والتطوعات وغيرها ويتّخذ إلى ربّه طريقًا يؤدّي به إلى

---

(1)انظر : "مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد" – لمحمد بن عمر نووي الجاوي (137/2).

(2)زهرة التفاسير – (5304/1) .

(3)انظر : "تفسير الشعراوي" – للشعراوي (10479/17).

رحمته ونيل ثوابه بالعمل الصالح فليفعل ولا يتردد، فلا تصنعوا معي إحسانًا بأجر تدفعونه لي، ولكن اطلبوا الأجر لأنفسكم بفعل الخير وعبادة الله وشكره [1].

ومن الآيات التّي تدعو إلى اتّباع سبيل الله قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلى رَبّه سَبِيلًا﴾ (المزمل:19).

في هذه الآية الكريمة يوضّح سبحانه أنّ هذه الآيات التّي سقناها لكم تذكرة وموعظة وهي الآيات التّي جاءت في سياقها هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿10﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿11﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿12﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿13﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿14﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿15﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿16﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿17﴾ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿18﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلى رَبّه سَبِيلًا ﴿19﴾﴾ (المزّمّل:10-19)، فمن شاء النجاة من أهوال يوم القيامة فعليه أن يؤمن بالله تعالى إيمانًا حقًا وأن يتّخذ بسبب إيمانه وعمله الصّالح طريقًا وسبيلًا إلى رضا ربّه ورحمته ومغفرته [2].

ويقول الشّيخ طنطاوي: "والتعبير بقوله: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ... ﴾ليس من قبيل التخيير، وإنما المقصود به الحض والحث على سلوك الطّريق الموصل إلى الله- تعالى- بدليل قوله- تعالى- قبل ذلك:﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أى: هذه الآيات تذكرة وموعظة، فمن ترك العمل بها ساءت عاقبته، ولم يكن من الذّين سلكوا طريق النجاة، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى:﴿وَقُلِ الحقّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:29)" [3].

---

(1)انظر : "التفسير المنير" – للزحيلي (93/19) .

(2)انظر: "تفسير القرآن" – للسمعاني (83/6).

(3)"الوسيط" – (165/15).

ففي هذه الآية تحريض للمكذّبين على اتّباع وسلوك الطّريق المستقيم، فهذه الآيات المخوّفة موعظة لأولي الألباب، فمن أراد اتّعظ بها واتّخذ الطّاعة طريقًا توصله إلى رضوان الله في الجنّة وذلك بالاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية.

ويقول ابن عاشور: "هذا التَذْيِيل لِمَنْ يَتَذَكَّرُ فَإِنْ كَانَ مِنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ آمَنَ بِهِ وَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا اسْتِفَاقَ مِنْ بَعْضِ الْغَفْلَةِ التّي تَعْرِضُ لِلْمُؤْمِنِ فَاسْتَدْرَكَ مَا فَاتَه...،وهذا السّبيل موصل إلى الخير فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سلوك هذا السّبيل إلا مشيئته... وهذه الآية تمثيل لحال طالب الفوز والهدى بحال السائر إلى ناصر أو كريم قد أُري السّبيل الذي يبلّغه إلى مقصده فلم يبق له ما يعوّقه عن سلوكه" [1].

والله –ﷻ– جعل للإنسان عقلًا يدرك به الحسن والقبيح، واختيارًا يتمكّن به من اتّباع ما يريد، فلم يبق له مانع من جهة اختيار الأصلح والأحسن إلا قسر المشيئة التّي لا اطلاع له عليها ولا صلة له فيها، فيسلك هذا الإنسان على وفق ما جاءه من التّذكرة، ومتى زاغ عن ذلك هلك[2].

حقًّا إنّ اتّباع سبيل الله هو السعادة والراحة في الدّنيا والآخرة، فهذه السّعادة والرّاحة لا يجدها الإنسان إلا في اتّباع سبيل الله والالتزام به وعدم الحياد عنه، فهو طريق الجنّة والخلود فيها.

المطلب الحادي عشر: اتّباع سبيل من أناب.

إنّ الإنسان بطبيعته خطّاء ويرتكب الذنوب والمعاصي سواء كانت صغيرة أم كبيرة، ولكن الله سبحانه يغفر لمن تاب من عباده ورجع إليه وأناب وقد مدح الله تعالى هؤلاء المنيبين إليه وأمر باتّباع طريقهم والسير على نهجهم في قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدّنيا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(لقمان:15).

والمعنى: إن حملك والداك أيّها العبد المؤمن وليس مجرد عرض للشرك بالله وإنّما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهما في الشرك بالله، فإن حدث ذلك فنصيحتي لك ألا تطعهما لأنّ

---

(1)"التحرير والتنوير" – (278/29).

(2)انظر : "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" – للنيسابوري (381/6)، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" – للبقاعي (28/21).

أمرهما بذلك مناف للحكمة حامل على محض الجور والسفه، ففيه تنبيه لقريش على محض الغلط في التقليد لآبائهم في ذلك. فالله -ﷻ- لم يقل له إن حملاك على الشرك بي أن تعقّهما وتؤذيهما بل قال: فلا تطعهما فيما أمراك به ولكن ابق بارًّا بهما واستمر على ذلك، فهذه هي أخلاق العبد المؤمن بالله المتّبع لأوامره، والمبتعد عمّا نهى عنه فيقول له: إيّاك أن تتخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سببًا في قطع الرّحم، فحتّى مع الكفر يكون لهما حقٌّ عليك، ثم إنهما كفرا بي أنا، وأنا الذي أوصيك بهما معروفًا.

ولن تكون وحدك بل سبقك أناس قبلك تابوا وأنابوا فكن معهم، فهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله والمستسلمون لربهم والمنيبون إليه[1]، " واتّباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التّي هي انجذاب دواعي القلب وإرادته إلى الله ثم يتبعهما سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه"[2].

ويقول الشيخ علوان[3]: "صاحِبْهُما فِي الدّنيا وان كانا مشركين مَعْرُوفًا مستحسنًا عقلًا وشرعًا ومروءة حفظًا لحقوقهما وَبالجملة لا تتبع بشركهما وكفرهما مطلقًا بل اتَّبِعْ في الدّين والملة سَبِيلَ مَنْ أَنابَ ورجع إِلَيَّ ودين من توجه نحوي موحدًا إياي بريئًا من الشرك مطلقًا وبالجملة امض على التوحيد واسلك طريقه ما دمت في دار الابتلاء ثُمَّ اعلم أنكم بعد ما انقرضت النشأة الأولى إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ تابعًا ومتبوعًا موحدًا ومشركًا أصلًا وفرعًا فَأُنَبِّئُكُمْ حينئذ وأخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي بتفاصيل أعمالكم التّي قد صدرت عنكم في دار الاختبار وأجازيكم على مقتضاها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر"[4].

---

(1)انظر : "تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس" – لابن عباس (345/1) .

(2)"تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (648/1) .

(3)هو نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان، من أهل آقشهر، من ولاية فرحان، نسبته إلى نخجوان من بلاد القفقاص، رحل إلى الأناضول وتوفي بآقشهر سنة 920هـ، له عدة كتب منها: هداية الإخوان. (انظر: "الأعلام" – للزركلي (39/8))

(4)"الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية" – (132/2).

وقال التستري: "من لم يهتد الطّريق إلى الحقّ عزَّ وجلَّ فليتبع آثار الصالحين لتوصله بركة متابعتهم إلى طريق الحقّ، ألا ترى كيف نفع اتّباع الصالحين كلب أصحاب الكهف، حتّى ذكره الله تعالى بالخير مرارًا" [1].

بعد هذا الاستعراض في الآية الكريمة يتّضح أنّ سبيل من أناب إلى الله هو سبيل الحقّ والخير، فالعبد المؤمن يتّبع طريق المؤمنين من قبله لأنّ طريقهم هو طريق الله ورسوله، فمن سلك طريقهم وجد الخير الكثير والمغفرة والجنان والرضوان عند الملك الجبّار.

المطلب الثّاني عشر : الظّمأ والنّصب والمخمصة في سبيل الله.

في كل رسالة خير عقبات كثيرة ومصاعب جمة، فالمؤمن الذي يسير على نهج الله وطريقه يصيبه من الابتلاءات ما يصيبه، وبالمقابل فإنه بقدر ما عانى في سبيل الله بقدر ما يناله من الأجر العظيم، ولذا فقد حثّ الإسلام على الصبر في الطّريق، ووبّخ من يهرب منه سعيًا للدعة والراحة وطلبًا لمتاع الدّنيا الزائل، يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة:120).

في هذه الآية يعاتب الله المتخلفين عن رسول الله –ﷺ– في غزوة تبوك قائلًا: أنّه ما كان من شأن أهل المدينة من مهاجرين وأنصار الذين آووا ونصروا وهم أهل النّجدة والإيواء ومن حولهم من الأعراب الذّين يسكنون في ضواحي المدينة الذّين أشربوا الإيمان أن يتخلّفوا عن رسول الله –ﷺ– ويؤثروا الدّعة والرّاحة ويتركوه وحده يكابد المشاق ويتحمل المتاعب في سبيل عزّهم ورفع دينهم، ما ساغ لهم ذلك وهم يرغبون في الدعة وطيب العيش الرّغيد، وخص هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم وأنهم أحقّ بذلك من غيرهم، بل إنّ المراد من النص النهي عن التخلّف، والتّوبيخ عليه لأنّ المتخلف يؤثر نفسه على نفس رسول الله –ﷺ– التّي لا بدّ من إيثارها وحبّها أكثر من حبّ النّفس، فلا يصحّ لهؤلاء

(1)"تفسير التستري" – (123/1) .

إيثار أنفسهم على نفس رسول الله -ﷺ-، فلا يرضوا لأنفسهم بالدعة والرّاحة ورسول الله -ﷺ- في المشقّة [1].

ولم يكن لهم حق التخلّف بل يجب عليهم الاتّباع والجهاد، بسبب أنّ كل ما يصيبهم في جهادهم من معاناة ومكابدة ومشاقّ كالعطش الشّديد الذي اعتراهم في تبوك حتّى كادت أعناقهم أن تتقطع من العطش لولا أن النبي -ﷺ- استسقى السماء لهم فأغدقت، وكذلك ما أصابهم من النّصب وبعد الشقّة أو لقلة الظهر أو مخمصة وجوع شديد تجعل البطون خامصة ضامرة في سبيل الله، كالذي أصابهم في هذه الغزوة التّي فتحت الباب إلى الشام، إذ أصابهم جوع شديد حتّى أنهم كانوا يتقاسمون التمرة، وهؤلاء المؤمنون لا يطئون أرضًا ولا ينزلون فيها إلا ويكون وطئها فيه غيظ للكافرين إذ انتهك المؤمنون حمى أرضهم، ولم يستطيعوا حمايتها من جيوش الحقّ والإيمان، وذلك فيه عنت شديد لهم وإهدار لحرمات أرضهم، وفي ذلك إذلال لهم بعد أن كانوا لا يمس أحد حماهم الذّي يحمون وكذلك أنّ هؤلاء المؤمنين ينالون من العدو بأن يحاربوهم فيهزموهم [2].

ويقول أبو زهرة: "أي أن ظمأهم الشديد، وجوعهم الذي صبروا عليه، ووطأهم أرض العدو الكافر التّي كانت لَا ترام، ونيلهم من بني الأصفر الذّين يتحكمون، ولا مسيطر عليهم أو محاسب، ما من أمر يقوم به أهل الإيمان إلا كتب اللَّه تعالى لهم به عملا صالحا عنده، ينال أهل الإيمان به رضاه أولا واعتزازهم بالحقّ ثانيا، وجنة النعيم ثالثا" [3].

ويختم سبحانه الآية الكريمة أنّ جزاءه سبحانه عظيم، أجر للعمل الصالح، وسمّاه سبحانه أجرًا تكرمًا منه وفضلًا، وإلا فلا أجر إلا بفضله لأنه المنعم والعبد ملك لسيّده، ووصف الذّين يقومون بحق الجهاد بأنهم محسنون لأنهم قاموا بما وجب عليهم وأحسنوا الطاعة وأبلوا فأحسنوا البلاء.

فهذا هو نوع الجهاد بأنفسهم إذ تركوا الراحة ومتعتها وآثروا البلاء فأخذهم الظمأ والجوع ووطئوا أرض العدو ونالوا منه نيلًا [4].

---

(1)انظر : "تفسير المراغي" – للمراغي (45/11)، "الموسوعة القرآنية" – لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري (44/10) .

(2)انظر : "التحرير والتنوير" – لابن عاشور (55/11)، "تفسير الشعراوي" – للشعراوي (5563/9) .

(3)"زهرة التفاسير" – (3480/7) .

(4)انظر : "التفسير المنير" – للزحيلي (74/11).

فالمؤمن عندما يصبر على كل أنواع الأذى والعذاب والمشاق ينال رضى الله في الدّنيا وجنّته في الآخرة، فطريق الجنّة محفوف بالمخاطر والابتلاءات تنتهي بجنّة عرضها الأرض والسّماوات.

المبحث الثّاني: ميادين الشر

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأوّل: القتال في سبيل الطّاغوت.

المطلب الثّاني: الصّدّ عن سبيل الله.

المطلب الثّالث: إضلال سواء السّبيل.

المطلب الرّابع: اتّباع سبيل الكافرين.

المطلب الخامس: قطع السّبيل.

المطلب السّادس: عدم الإنفاق في سبيل الله.

المطلب السّابع: اتّباع السّبل.

المبحث الثّاني: ميادين الشّر

تتعدَّدُ ميادين الشّر في السياق القرآني بجميع أنواعها لتشمل القتال في سبيل الطاغوت، والصّد والإضلال عن سبيل الله، واتّباع سبيل الكافرين، وقطع السّبيل، وكذلك عدم الإنفاق في سبيل الله، واتّباع السبل المتفرّقة، والتي ستتناولها الباحثة بالتّفصيل خلال المطالب الآتية:

المطلب الأوّل: القتال في سبيل الطّاغوت.

إنّ القتال في سبيل الطّاغوت لهو الشرّ بعينه، فعندما يختار الإنسان القتال في سبيل الطّاغوت الباطل المؤدي إلى الهلاك على سبيل الله الواضح البيّن المؤدّي إلى الرّشاد، فإن هذا الاختيار سوف يجعله يضيع لا محالة، وقد أمر الله –ﷻ– عباده المخلصين المقاتلين في سبيله إلى قتال أولياء الشّيطان المقاتلين في سبيله، وذلك في قوله تعالى: ﴿**الذّين آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطّاغوت فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾(النساء:76).

في هذه الآية يبيّن –ﷻ– أنّ المؤمنين يقاتلون لغرض نصرة دين الله وإعلاء كلمته، والكافرون يقاتلون في سبيل الطّاغوت.

"وهذه الآية كالدّلالة على أنّ كل من كان غرضه في فعله رضى غير الله فهو في سبيل الطّاغوت، لأنه تعالى لما ذكر هذه القسمة وهي أنّ القتال إما أن يكون في سبيل الله أو في سبيل الطّاغوت وجب أن يكون ما سوى الله طاغوتًا" [1].

فالقرآن الكريم يصوّر أحقيّة الغاية التّي يجاهد لها الذّين آمنوا وقوة السّند إلى جانب بطلان غاية الذّين كفروا وضعف سندهم فيها، فإنّ الكافرين اعتمدوا على أضعف شيء وأوهنه، والمؤمنين اعتمدوا على أقوى شيء وأمتنه.

(1)"مفاتيح الغيب" – للرازي(142/10)

فيقول الحقّ –ﷻ– في مدح المخلصين المؤمنين فيرغّبهم ترغيبًا ويشجّعهم تشجيعًا بإخبارهم أنّهم إنّما يقاتلون في الله، فهو وليّهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا وليّ لهم إلا الشّيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه [1].

فيأمر الله –ﷻ– بأن نقاتل نصراء الشّيطان الذّين ينفخون في مبادئه، والذين ينصرون وسوسته في نفوسهم ليوزّعوها على النّاس، هؤلاء هم أولياء الشّيطان وهم نصراؤه المخالفون للمنهج، ويأمر سبحانه بأن نقاتل الذّين بينهم وبين الشّيطان ولاء، وبعد ذلك يطمئن –ﷻ– المؤمنين بأنّ الشّيطان عندما يكيد سيكون كيده في مقابل كيد ربّه، فلا بدّ أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله، وليس للشيطان سلطان يقهر به الإنسان على فعل، وكذلك لا يستطيع أن يرغمه على أن يفعل، وليس له حجّة يقنعه بها [2].

يقول الخازن: " وكونه ضعيفًا لأنّه خذل أوليائه الكفّار لما رأى الملائكة قد نزلت يوم بدر، وكان النّصر لأولياء الله وحزبه على أولياء الشّيطان" [3].

فلو ترك المؤمنون القتال والكافرون لم يتركوه لغلب الطّاغوت وعمّ، فغلبت الوثنيّة المفسدة للعقول والأخلاق وعمّ الظلم والاستبداد، ويعدّ كيد الشيطان ضعيفًا لأنه يزيّن لأصحابه الباطل والظّلم والشر وإهلاك الحرث والنّسل، فيوهمهم بوسوسته أنّها خير لهم وفيها عزّهم وشرفهم، وهذا هو الكيد والخداع، ومن سنن الله أنّ الحقّ يعلو والباطل يدنو، فالذّين يقاتلون في سبيل الله يطلبون شيئًا ثابتًا صالحًا، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحقّ وتسخير الناس لشهواتهم ولذاتهم، وهي أمور تأباها فطرة البشر السّليمة وسنن العمران القويمة، فلا قوة ولا بقاء لها إلا بتركها وشأنها وإرخاء العنان لأهلها، وإنّما بقاء الباطل لنومة الحقّ عنه [4].

---

(1)انظر: "الكشاف" – للزمخشري (535/1).

(2)انظر: "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" – لابن عجيبة (530/1).

(3) "تفسير الخازن" – (399/1).

(4) انظر: "تفسير المنار" – لمحمد رشيد رضا (213/5)، "تفسير الشعراوي" – للشعراوي (2419/4).

بعد هذا يتبيّن لنا أنّ القتال في سبيل الطّاغوت لا يجلب على صاحبه إلا الدمار في الدّنيا والآخرة، فالشّيطان لا يعدُّ أولياءه إلّا الكذب في الدّنيا وبالتالي الخزي في الآخرة ودخول جهنم وبئس القرار.

المطلب الثّاني: الصّدّ عن سبيل الله.

يحاول أعداء الإسلام أن يطمسوا معالم هذا الدّين القويم بأيّ وسيلة من وسائلهم الفاسدة، ولكن يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، وفي هذا المطلب ستستعرض الباحثة بعض الآيات التّي تبيّن كيف كان أهل الكتاب واليهود والنصارى وكل أعداء هذا الدّين يصدّون عن سبيل الله، ومن الآيات التّي يذمّ فيها سبحانه أهل الكتاب لصدّهم عن سبيل الله قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾(آل عمران:99).

في هذه الآية الكريمة يأمر الله نبيه –ﷺ– أن يوبّخ أهل الكتاب ويزيد في تقريعهم وإزاحة لأعذارهم فيقول لهم: لأيّ شيء تصرفون المؤمنين عن الإيمان الحقّ وتصدّونهم عن السّبيل التّي وضّحها الله تعالى وبيّنها وهي سبيل النور وسبيل الحقّ والصّراط المستقيم الذي يوصل إلى رضاه سبحانه، وكذلك تمنعون من آمن بالنبي –ﷺ– عن الاستمرار على اتّباعه وتنشرون الفتنة والوقيعة بين أصحابه، وإذا كان أولئك يحاولون منع الناس من الطّريق الذي رسمه العليّ الكريم وحدّ حدوده، فقد عاندوا إرادة الله وحادّوه، ومن يحادّ الله تعالى فإنّه مغلوب لا محالة.

وقد وصف –ﷻ– حالهم في الصّدّ عن سبيل الله وهي أنّهم يريدونها أن تكون ملتوية غير واضحة ولا بيّنة في أعين المهتدين، كما التوت نفوسهم وحارت عيونهم فلم تدرك الحقّ مستقيمًا بعد أن قامت بيّناته[1]، ولكن الحال أنّكم تعلمون أنّ سبيل الإسلام هي سبيل الحقّ علم من يعاين ويشاهد الشّيء على حقيقته، فجحودكم عن علمٍ، وكفركم ليس عن جهل، ولقد كان من المتوقّع منكم يا من ترون الحقّ الذي جاء به محمّد –ﷺ– في كتابكم أن تكونوا أوّل السّاعين إلى الإيمان به، ولكن الحدّ والعناد حالا بينكم وبين الانتفاع بالنّور الذّي جاء به محمّد –ﷺ–.

(1)انظر: "التحرير والتنوير" – لابن عاشور (26/4)، "تفسير المنار" – لمحمد رشيد رضا (14/4).

ويختم الله سبحانه الآية بتهديد لهم ووعيد على ضلالهم واضلال غيرهم لأنّه سبحانه ليس غافلًا عن أعمالهم، بل هو سيجازيهم على هذه المسالك الخبيثة بالذّلّة في الدّنيا وبالعذاب والهوان في الآخرة، ولمّا كان صدّهم للمؤمنين بطرق خبيثة فقد حسم الله مادّة حياتهم ببيان أنّه -ﷻ- محيط بكل ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال وليس غافلًا عنها[1].

ويبيّن -ﷻ- جزاء اليهود عندما صدّوا عن سبيل الله فيقول تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِّينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء:160).

في هذه الآية الكريمة يحكي سبحانه ألوانًا من جرائم اليهود وبعض العقوبات التّي حلّت بهم بسبب ظلمهم وبغيهم، فبيّن سبحانه: أنّه بسبب ظلم عظيم وشنيع وقع من أولئك اليهود حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ولو أنّهم لم يقعوا في هذا الظلم الشديد لما حرم الله عليهم هذه الطيبات التّي هم في حاجة إليها [2].

ويقول الأستاذ طنطاوي: " والآية الكريمة تعليل لبعض العقوبات التّي نزلت بهم بسبب ظلمهم وبغيهم، ومن ضروب هذا الظلم والبغي ما سجّله الله عليهم قبل ذلك من نقض للمواثيق، ومن كفر بآيات الله، وما سجّله عليهم بعد ذلك من صدٍّ عن سبيل الله، ومن أخذ للرّبا، وقد نهاهم الله عن أخذه، وهذه الطيبات التّي حرّمها الله عليهم منها ما حكاه سبحانه في قوله: ﴿وَعَلَى الذِّينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام:146)، والتعبير عنهم بقوله ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِّينَ هَادُواْ﴾ إيذان بشناعة ظلمهم حيث إنّهم وقعوا في هذا الظّلم الشّديد بعد توبتهم ورجوعهم عن عبادة العجل" [3].

---

(1)انظر: "موسوعة الصّحيح المسبور من التفسير المهجور" – لحكمت بشير ياسين (440/1)، " أيسر التفاسير" – للجزائري (352/1).

(2)انظر: "البحر المديد" – لابن عجيبة (589/1).

(3)"التفسير الوسيط" – (385/3).

والله –ﷻ– حرّم عليهم طيبات كانت حلالًا لهم ثم حرمت عليهم بسبب بغيهم وظلمهم وبسبب ما ارتكبوه من ذنوب، وبسبب صدّهم أنفسهم عن طريق الحقّ التّي شرعها الله لعباده وصدّهم غيرهم عنها صدًا كثيرًا، بسبب ذلك عاقبناهم وطردناهم من رحمتنا. [1]

ويصف تعالى الكافرين الذّين يصدّون عن سبيله بأنهم ضلوا ضلالًا بعيدًا بصدهم عن سبيل الله حيث يقول الحقّ –ﷻ–: ﴿إِنَّ الذِّينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلًا بَعِيدًا﴾ (النساء:167).

يقول الحقّ –ﷻ–: إنّ الذّين كفروا بما أنزلت على رسولنا –ﷺ– من اليهود أو غيرهم وصدّوا النّاس عن طريق الله الموصلة إليه فقد ضلوا ضلالًا بعيدًا لأنّهم جمعوا بين الضّلال والإضلال، ولأنّ المُضِلَّ يكون أغرق في الضّلال، فهم قد صدّوا عن سبيل الله وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوّة محمد –ﷺ– وبقولهم ما نجد صفته في كتابنا وإنّما النبوة في ولد هارون وداوود، وبقولهم إنّ شرع موسى لا ينسخ قد ضلّوا ضلالًا بعيدًا عن الحقّ بما فعلوا لأنّهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحقّ [2].

وكذلك يصف سبحانه الكافرين المنفقين أموالهم للصّد عن سبيل الله أن مصيرهم سيكون جهنّم، وأموالهم ستكون عليهم حسرة جزاء أعمالهم الفاسدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِّينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(الأنفال:36).

يبّين –ﷻ– أنّ الذّين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقوّا بها على قتال رسول الله –ﷺ– والمؤمنين به وليصدّوا المؤمنين بالله ورسوله –ﷺ– عن الإيمان به، فسينفقون أموالهم في ذلك، ثمّ تكون نفقتهم تلك عليهم حسرة وتصير ندامة عليهم لأنّ أموالهم تذهب ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله، لأن الله معلٍ كلمته وجاعلٌ كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون ويحشر الله الذّين كفروا به وبرسوله –ﷺ– إلى جهنم فيعذبون بها، فأعظم حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك، أما الحيّ فحُرّم ماله وذهب باطلًا

(1)انظر: "التفسير القرآني للقرآن" – لعبد الكريم يونس الخطيب (1004/3)، "مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد" – لمحمد بن عمر نووي الجاوي (241/1).

(2)انظر: "فتح القدير" – للشوكاني (622/1)، "محاسن التأويل" – للقاسمي (476/3).

في غير درك نفعٍ ورجع مغلوبًا مقهورًا محروبًا مسلوبًا، وأمّا الهالك فقُتل وسُلب وعُجّل به إلى نار الله يخلد فيها[1].

"والمذكور في سيرة محمد بن اسحاق[2] أنّه لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكّة ورجع أبو سفيان لعيره مشى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة فقالوا: يا معشر قريش إنّ محمدًا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرًا لمن أصيب منّا، وقد ذكر ذلك عن ابن عباس -رضي الله عنه-".[3]

وينهى -سبحانه وتعالى- المؤمنين أن يكونوا كالكافرين المرائين لأعمالهم، الصّادّين عن سبيله، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال:47).

في هذه الآية نهى -سبحانه وتعالى- المؤمنين أن يكونوا كالمشركين الذّين يحاربون مفاخرين قد بطروا معيشتهم ولا يهمهم إلا المراءاة في القتال والصّدّ عن سبيل الله.

فهذا تقدم من الله -جل جلاله- إلى المؤمنين به وبرسوله -صلى الله عليه وسلم- ألّا يعملوا عملاً إلا لله خاصة وطلب ما عنده لا رئاء الناس كما فعل القوم من المشركين[4]، "وذلك أنّه لمّا رأى أبو سفيان أنّه أحرز عيره، أرسل إلى قريش أنّكم خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجّاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتّى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثاً: فننحر الجزور ونطعم الطّعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القينان ويسمع

---

(1)انظر: "جامع البيان" – للطبري (529/13)، "تفسير المراغي" – للمراغي (204,205/9)، "فتح البيان في مقاصد القرآن" –لأبي الطيب القنوجي (171/5).

(2)محمد بن اسحاق :هُوَ الْحَافِظ الْكَبِير، إِمَام الْأَئِمَّة شيخ الإسلام، أَبُو بكر مُحَمَّد بن إِسْحَاق ابْن حزيمة بن الْمُغيرَة النَّيْسَابُورِي. ولد سنة 223 وعني فِي حداثته بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْه حتّى صَار يضْرب بِهِ الْمثل فِي سَعَة الْعلم والإتقان، وانتهت إليه الْإِمَامَة وَالْحِفْظ فِي عصره بخراسان، سمع من إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه، وَمُحَمّد بن حميد، وَلم يحدث عَنْهُمَا لصغره، وَسمع من مَحْمُود بن غيلَان وَأحمد بن منيع وَغَيرهم، وَحدث عَنهُ الشَّيْخَانِ خَارج صَحِيحَيْهِمَا، وَمُحَمّد بن عبد الله بن عبد الحكم أحد شُيُوخه وَغَيرهم. ومصنفاته تزيد على مائَة وَأَرْبَعين كتاب سوى الْمسَائِل، والمسائل المصنفة مائَة جُزْء. توفّي فِي ثَانِي ذِي الْقعدَة سنة311 وَهُوَ فِي تسع وَثَمَانِينَ سنة.(انظر:" نفض الامام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد" – لأبي سعيد السجستاني (33/1))

(3)"زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (3123/6).

(4)انظر: "ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" – لأبي السعود (26/4)

بها العرب ولا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها فسقوا كأس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القينان"[1]، فبصدّهم عن سبيل الله وإرادتهم أن يكون الشّرك هو الغالب فقد بيّن الله تعالى قدرته في ختام الآية أنّه يتّصف بالعلم والإحاطة، فأبطل الله بجلاله وعظمته أعمالهم فكل ما يعملونه في قبضته، وهذا تهديد لهم[2].

ويذمّ –ﷻ– المشركين الذّين باعوا الآخرة الباقية بالدّنيا الزّائلة بصدّهم عن سبيل الله فقال تعالى: ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:9).

يقول جلّ ثناؤه أنّ هؤلاء المشركين باعوا الإيمان بعرضٍ من الدّنيا، وهو قليلٌ بجوار الحقّائق الخالدة التّي فيها الصّلاح في الدّنيا والآخرة، وإنّهم بسبب اختيارهم ذلك الثمن القليل وتركهم ذلك الحظّ الوفير من الحقّ وسلامة الفكر والهداية والرّشاد قد عدلوا عن الطّريق وصدّوا أنفسهم عنه وصرفوا غيرهم منه فصدّوا عن السّبيل القويم والهدى المستقيم.

ولقد بيّن –ﷻ– الحكم الصّادق عليهم حيث إنّهم بهذا العمل الذي تركوا فيه الآيات التّي تلوح بالحقّ وتبيّنه قد ساء فعلهم الذي استمرّوا عليه وهو يتجدّد آنًا بعد آنٍ فهو فعلٌ مستمرٌّ.[3]

والصدُّ عن سبيل الله حين تكون هناك دعوة معروضة بأدلّتها ليستمعوا إليها، فالكفّار يعرفون أنّ النّاس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السّماع وإن قرأ أحدٌ القرآن فإنهم يأمرون بعضهم البعض باللّغو فيه حتّى لا يفهم منه شيئٌ، وهذه شهادة من الكفّار بأنّ الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت، واللّغو هو نوعٌ من الصّدّ عن سبيل الله، وهناك نوع آخر من الصّدّ عن سبيل الله، حيث إنّهم يمنعون الناس من الاستماع إلى دعوة الرّسول –ﷺ– لأنّهم يعرفون أنّ حلاوة الدّعوة ستجعل من يستمع إلى دعوة الرّسول –ﷺ– يؤمن بها، ولذلك فهم يصدّون عن كلام الله تعالى والاستماع لرسوله –ﷺ–، وكانوا يقولون لأهل الحجيج: لا تصدّقوا هذا الرجل الذي يقول أنّه نبيٌّ، وهذه شهادة منهم أيضًا أنّ الآذان لو استقبلت القرآن لسحبت أفئدتهم إلى الإيمان وهذه شهادةٌ ضدّهم وليست لهم لأنّهم

---

(1)"التفسير المظهري" – لمحمد ثناء الله (98/4).

(2)انظر: "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" – للنيسابوري (405/3)، "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون" – للسمين الحلبي (616/5).

(3)انظر: "تفسير الشعراوي" – للشعراوي (4980/8).

واثقون أنّ سماع الحجيج لدعوة الرّسول –ﷺ– ستبعدهم عن الكفر، لذلك كانوا يخافون أن يتأثّر النّاس بهذا الدّين الذي هو دين الحقّ فيؤمنوا به، وهذا ما جعلهم يصدونهم عنه [1].

وكذلك يصف الله تعالى الكافرين المفضّلين الدّنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيله أنّهم قد بعدوا في الضّلالة فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم:3).

في هذه الآية يصف –ﷻ– الكافرين بجملة من الصّفات الذميمة التّي أردتهم وأهلكتهم، فهم يختارون شهوات الحياة الدّنيا ويؤثرون لذائذها ومتعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات، وكذلك لا يكتفون بهذا بل يضعون العراقيل في طريق دعوة الحقّ حتّى يبتعد النّاس عنها ويطلبون لها العوج والميل تبعًا لزيغ نفوسهم مع أنّها أقوم طريق وأعدل سبيل.

فهؤلاء الكافرون يقفون مترصّدين السّبيل يصدّون عنها لمنع النّاس منها وقد أشار سبحانه أنّ المحمّلين بهذه الأوصاف التّي استحبّوا بها الحياة الدّنيا وآثروها على الحياة الآخرة ورضوا بالدّنيّة عن الحياة العزيزة الكريمة في الآخرة، وصدّوا عن سبيل الله وبغوا الحقّ معوجًّا غير مستقيم، فهم قد أوغلوا في متاهة الباطل، فبعدوا بضلالهم وغابوا عن الحقّ وسواء السّبيل [2].

ويبيّن سبحانه جزاء الكافرين المفسدين الصّادّين عن سبيله بأنّ لهم عذابًا فوق العذاب فيقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل:88).

في هذه الآية يبيّن سبحانه مصير الذّين لم يكتفوا بالكفر بل ضمّوا إليه رذائل أخرى، وهي أنّهم صدّوا غيرهم ومنعوهم عن سبيل الله وعن اتّباع صراطه المستقيم والطريق القويم وهو طريق الإسلام، والدعوة إلى الكفر وأسبابه والحمل عليه يكون أحيانا بالتّرهيب وأحيانا أخرى بالتّرغيب، فهؤلاء

(1)انظر: "بيان المعاني" – لعبد القادر العاني (149/6)،"الموسوعة القرآنية" – لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري (9/10).

(2)انظر: "اللباب في علوم الكتاب المكنون" – لأبي حفص النعماني (334/11)، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" – للبقاعي (373/10)، "زهرة التفاسير" لأبي زهرة (3985/8).

الأشقياء الذّين فعلوا ذلك سوف يزيدهم من عذابه فوق العذاب الذي يستحقّونه وذلك كله بسبب فسادهم في الأرض وكفرهم بالحقّ وصدّهم النّاس عن اتّباعه [1].

وكذلك يبيّن -ﷻ- أنّ سبب فساد الأقوام السّابقة إنّما كان بتزيين الشيطان لهم الأعمال وصدّهم عن السّبيل القويم، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت:38).

في هذه الآية يخبر سبحانه أنّه أهلك عادًا وثمود بسبب كفرهم وعنادهم، كما أهلك غيرهم، والحال أنّه قد تبيّن لكم يا أهل مكّة وظهر لكم بعض مساكنهم وأنتم تمرّون عليهم في رحلتي الشتاء والصيف، والمقصود منها غرس العبرة والعظة في نفوس مشركي مكّة عن طريق المشاهدة لآثار المهلكين، فإنّه مما يحمل العقلاء على الاعتبار مشاهدة آثار التمزيق والتدمير بعد القوّة والتّمكين، وكذلك زيّن لهم الشيطان أعمالهم السيّئة بسبب وسوسته وتسويله فصدهم عن السّبيل الحقّ وعن الطّريق المستقيم.

وكانت عاد وثمود لهم عقول وكانوا يستطيعون فيها التّمييز بين الحقّ والباطل وبين الخير والشّر، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له وإنّما استحبّوا العمى على الهدى وآثروا الغيّ على الرّشد فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر [2].

ومن الآيات التّي تبيّن جزاء الصّادّين عن سبيله قوله تعالى: ﴿الذّين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد:1).

هذه الآية افتتح الله بها سورة القتال التّي بها الذّمّ الشّديد للكافرين وبها الثّناء الكبير على المؤمنين، فهؤلاء المشركين الذّين أعرضوا عن الحقّ وحرّضوا غيرهم على الإعراض عنه فإنّ الله تعالى قد أبطل أعمالهم وأحبطها وجعلها ضائعة ذاهبة لا أثر لها ولا وجود، والمراد بهذه الأعمال ما كانوا يعملونه في الدّنيا من عمل حسنٍ كإكرام الضّيف وبرّ الوالدين ومساعدة المحتاج، فالذين كفروا

(1)انظر: "البحر المديد" – لابن عجيبة (156/3)، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" – للشنقيطي (426/2)، "أيسر التفاسير" – للجزائري (149/3).

(2)انظر: "تفسير القرآن العظيم" – لابن كثير (278/6)، "الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية" – للشيخ علوان (104/2).

بالله تعالى وبكلّ ما يجب الإيمان به ومنعوا غيرهم من اتّباع دين الحقّ الذي أمر الله تعالى باتّباعه أضلّ الله أعمالهم وجعلها ذاهبة ضائعة غير مقبولة عنده ولن يثيب عليها كالضالّة من الإبل التّي هي مضيعة لا ربّ لها يحفظها يعتني بأمرها، أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها [1].

وكذلك يبيّن تعالى بأنَّ الكافرين الذّين يموتون على الكفر لن يغفر لهم ذنوبهم وذلك بسبب صدّهم عن سبيله، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِّينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (محمد:34).

يقول تعالى ذكره:إنّ الذّين جحدوا وأنكروا توحيد الله وصدّوا النّاس عن دينه الذي ابتعث به رسله وشاقّوا وخالفوا رسوله –ﷺ– فحاربوه وآذوه من بعد ما علموا أنّه نبي مبعوث ورسول مرسل وعرفوا الطّريق الواضح بمعرفته وأنّه رسول لله، ولكنّهم صدّوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك وفتنوهم عنه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ثمّ ماتوا وهم على ذلك الكفر فلن يغفر الله لهم ما صنعوه وسيعاقبهم عليه ويفضحهم على رؤوس الأشهاد[2].

بعد هذا نجد أنّ الصّدّ عن سبيل الله الواضح البيّن كان منذ فجر الإسلام، فها هم اليهود والنصارى وكذلك المشركون قد حدّثنا القرآن الكريم عنهم وعن طرق صدّهم عن سبيل الله، فهم لا يألون جهدًا ولا يدّخرون وسيلة إلا ويستعملونها للصّد عن سبيل الله، ولكنّ الحقّ لا بدّ وأنّ ينتصر ولو بعد حين، فيصيّر الله تعالى من عباده من يحمل رسالة الحقّ ويظهرها على كلّ الخلائق لتظهر واضحة بيّنة وتكون حجّة على الذّين كفروا.

المطلب الثّالث: إضلال سواء السّبيل.

إنّ سواء السّبيل هو الطّريق المستقيم، فمن حاد عن هذا الوسط يمينًا أو يسارًا فقد ضلّ إلى متاهات لن يستطيع الخروج منها إلا بإذن الله، فهو طريق مليء بالعثرات ومليء بالشّياطين ووساوسهم من الجن والإنس، وقد بيّن تعالى أن من يحيد عن طريق الإيمان والإسلام فقد ضلّ سواء السّبيل،

(1)انظر: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" – للبيضاوي (119/5)، "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" – للنسفي (321/3).
(2)انظر: "جامع البيان" – للطبري (187/22)، "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" – للثعلبي (38/9).

وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾(البقرة:108).

في هذه الآية يحذّر -ﷻ- من الاستماع إلى وساوس اليهود تثبيتًا لقلوبهم وتقوية لإيمانهم فيقول لهم: لا يصحّ لكم أيّها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم محمّد -ﷺ- مقترحات تتنافى مع الإيمان الحقّ كما تسألوه أسئلة لا خير من ورائها مثل أن تسألوا عن الآيات النازلة عليكم لإصلاح حالكم، لأنّكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبني إسرائيل الذّين طلبوا من نبيّهم موسى -عليه السلام- بعد أن جاءهم بالبيّنات مطالب تدلّ على تعنّتهم وجهلهم فقالوا له:﴿ أَرِنَا اللَّهِ جَهْرَةً﴾ (النساء:153)، وقالوا له: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾(الأعراف:138)، فبعد أن رأوا المعجزات وشقّ الله البحر لهم وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة، فلم تكن خافية عنهم بل كانت ظاهرة لهم واضحة دالّة دلالة دافعة على وجود الله -ﷻ- وعلى عظم قدرته[1]، ورغم هذا فإنّ اليهود قالوا لموسى -عليه السلام-:﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾(البقرة:55)، وكأنّما كانوا بمادّيّتهم يريدون أن يروا في حياتهم الدّنيوية من لا تدركه الأبصار، وبمجرّد أن عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنمًا يعبدونه، وعبدوا العجل رغم كلّ الآيات التّي شاهدوها، وكانوا كذلك يسألون موسى -عليه السلام- عن سرّ هذه الآيات على وجه الإلحاح والاقتراح فجازاهم الله بمقتضى اقتراحهم، فيهيب الله تعالى بالمؤمنين أنّه لو صرتم مثلهم واقترحتم أيضا كما اقترحوا لكنتم ممن يختار الكفر الموهوم المذموم على الإيمان المحقق المجزوم، ولخرجتم عن الصّراط السوي المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم محمد -ﷺ- لذلك يريد الله تعالى من المؤمنين أن يسيروا في الطّريق الممهد أو في وسط الطّريق لأنه أكثر أمانا لهم فهم فيه لن يضلّوا يمينًا ولا يسارًا بل يسيروا على منهج الله والإيمان، وطريق الإيمان دائمًا ممهّدٌ لا يقودهم إلى الكفر[2].

(1) انظر: "الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية" – للشيخ علوان (47/1).

(2) انظر: "ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" – لأبي السعود (144/1)، "تفسير الشعراوي" – للشعراوي (523/1).

وقد بيّن تعالى نتائج الإضلال عن سواء السّبيل عند بني اسرائيل خاصّة وعند غيرهم عامّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:60).

يقول تعالى ذكره في هذه الآية لنبيه محمد –ﷺ– : قل يا محمد لهؤلاء الذّين اتخذوا دينكم لعبًا وهزوًا من الذّين أوتوا الكتاب من قبلكم والذين ما هم فيه من العيب ما هو أولى من التّعييب وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه، فقل لهؤلاء اليهود الذّين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم: ما نعلم أهل دين أقل حظًا في الدّنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم، فقل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشرٍ من أهل ذلك الدّين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو من أبعده الله عن رحمته ومنع عنه رضاه ومسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وجعل منهم من عَبَدَ كُلَّ معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التّي اتّبعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم [1].

ويقول الأستاذ طنطاوي: "الكلام مسوق على سبيل المشاكلة والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد وزعمهم الباطل فكأنه سبحانه يقول لنبيه –ﷺ– إن هؤلاء اليهود يا محمد ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شرًا –مع أنّه عين الخير– قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة: لئِن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرًا لا خير فيه في زعمكم، فشرٌ منه عاقبة ومئالًا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وما عرف عنكم من عبادة لغير الله..... وشبيه بهذه الآية في مجاراة الخصم في زعمه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:24)" [2].

(1) انظر: "جامع البيان" – للطبري (437/10)، "فتح البيان في مقاصد القرآن" – لأبي الطيب القنوجي (7/4).
(2) "التفسير الوسيط" – (209/4).

فأولئك المتصفون بكل ما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله هم شر مكانًا من غيرهم وأكثر ضلالًا عن طريق الحقّ المستقيم من سواهم، فهم في الدّنيا يشركون بالله وينتهكون محارمه وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار[1].

وينهى سبحانه عن اتّباع الأقوام الضالّة لأنها تؤدّي إلى الانحراف عن الطّريق المستقيم، وذلك في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحقّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (المائدة:77).

في هذه الآية يأمر الله تعالى نبيّه الكريم –ﷺ–أن يناديَ أهل الكتاب الذّين تجاوزوا الحدود التّي تقرُّها الشرائع والعقول السليمة ؤيقول لهم: لا تتجاوزوا حدود الله تجاوزًا باطلًا كأن تعبدوا سواه مع أنّه هو الذي خلقكم ورزقكم، وكأن تصفوا عيسى بأوصاف هو بريء منها وقل لهم كذلك لا تتبعوا شهوات وأقوال قوم من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم قد ضلّوا من قبل بعثة النبي –ﷺ– بتحريفهم للكتب السماوية وتركهم لتعاليمها جريًا وراء شهواتهم وأهوائهم، وأنهم كذلك لم يكتفوا بضلال أنفسهم بل أضلّوا أناسًا كثيرين سواهم ممّن قلّدهم ووافقهم على أكاذيبهم، فهم قد ضلّوا عن الطّريق الواضح الذي أتى به النبي –ﷺ– وهو طريق الإسلام، وذلك لأنهم لم يتبعوه –ﷺ– مع معرفتهم بصدقه بل كفروا به حسدًا له على ما آتاه الله من فضله[2].

ويقول الإمام الرازي: "أنّه تعالى وصفهم بثلاث درجات في الضّلال، فبين أنهم كانوا ضالّين من قبل، ثم ذكر أنهم كانوا مضلّين لغيرهم، ثم ذكر أنّهم استمرّوا على تلك الحالة حتّى إنّهم الآن ضالّون كما كانوا، ولا نجد حالة أقرب إلى البعد عن الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة....ويحتمل أن يكون المراد: أنهم ضلّوا وأضلّوا، ثم ضلّوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال أنّه إرشادٌ إلى الحقّ"[3].

---

(1) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" – للقرطبي (235/6)، "محاسن التأويل" – للقاسمي (182/4).

(2) انظر: "صفوة التفاسير" – للصابوني (231/1)، "التفسير المنير" – للزحيلي (277/6)، "المنتخب في تفسير القرآن" – لجنة من علماء الأزهر(160/1)

(3) "مفاتيح الغيب" – (411/12).

ومن الآيات التّي تدعو إلى اتّباع الطّريق القويم وتذكر العوامل المؤدّية إليه، بحيث من حاد عنها ضلّ سواء السّبيل، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ (المائدة:12).

في هذه الآية يخبر الله –ﷻ– أنّه أخذ العهود المؤكّدة على بني إسرائيل لكي يعملوا بما كلّفهم الله به من تكاليف وأمر نبيه موسى –عليه السلام– أن يختار منهم اثني عشر نقيبًا وأن يرسل هؤلاء النقباء إلى الأرض المقدسة لكي يطلعوا على أحوال ساكنيها ثم يخبروا نبيهم موسى–عليه السلام– بعد ذلك ما شاهدوه من أحوالها.

وقد أكد الله –ﷻ– على ما أخذه على بني اسرائيل من عهود للاهتمام بهذا الخبر ولترغيب المؤمنين في الوفاء بعهودهم مع الله تعالى حتّى لا يصيبَهم ما أصاب بني اسرائيل من عقوبات بسبب نقضهم لمواثيقهم.

وقد اختار موسى –عليه السلام– اثني عشر نقيبًا من بني اسرائيل لأنهم كانوا اثني عشر سبطًا وكلُّ نقيب كان بمنزلة الرقيب على االقبيلة التّي هو منها يُذَكِّرها بالفضائل ويرغبها في اتّباع موسى –عليه السلام– وينهاها عن معصيته، وقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وذكر أنّه معهم يعلم حالهم من طاعة أو عصيان فإنّه لا يخفى عليه أمرهم، وإنه محاسبهم على تنفيذ العقد والميثاق، وأنّه –ﷻ– يجزي بالحسنة الحسنى وبالسيئة السوءى، وإذا جاهدوا فالله تعالى معهم مؤيدهم بنصره إن اعتزموا ونصروه [1].

وهذا الالتزام الذي أوجبه ميثاق الله تعالى عليهم يتّصل بتهذيب النّفوس والتّعامل الاجتماعي والجهاد والإيمان، وقد ذكرهم –ﷻ– في خمسة أركان:

أوّلها: ما قاله سبحانه في صدر العهد ﴿**لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ**﴾،فالصلاة هي الركن الأوّل من الميثاق الربّاني الإلهي، وابتدأ بذكرها لأنّها طهارة النفوس وتزكية القلوب وبها تربية الضّمير الذي يكون جماعة مؤتلفة

(1) انظر: "تفسير القرآن بالقرآن" – لعبد الكريم يونس الخطيب (1551/3)،"التحرير والتنوير" – لابن عاشور (140/6).

وإقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربي في النفس روح الخير والإحساس بعظمة الله تعالى، ولا يمكن أن يكون الوفاء بالميثاق الإلهي من غير إقامة الصّلاة فإنها ركن كل دين وروح التدين الصّحيح وقوامه، وعبّر بإقامتها دون أدائها، لأنّ الصّلاة التّي تأتي بثمراتها هي الصّلاة الكاملة، التّي يأتي بها صاحبها مقومة غير ملتوية يتجه فيها بالنّيّة إلى الله تعالى، ويخلص فيها، لَا التّي تكون رئاء الناس، أو تؤدى على وجه العادة، لَا على وجه العبادة [1].

الرّكن الثّاني: من أركان ميثاق الله تعالى على بني إسرائيل، وخلقه عامة هو ﴿ **وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ** ﴾، وإذا كانت الصلاة تربية القلوب وتهذيب الوجدان ليندمج المؤمن في جماعته، فالزكاة فريضة تعاونية لسد حاجة الضعفاء، ولإيجاد تعاون بين الغني والفقير، فلا يكون الغني مملوء الجيب، والبطن، والفقير فارغ الجيب، أخمص البطن، فهي التعاون الكامل، وهذا يدل على أنّ الزكاة ليست في الإسلام فقط، بل هي في كل الأديان السماوية، وهي جزء من الميثاق الديني في كل الرسالات السماوية.

الرّكن الثّالث: ﴿ **وَآمَنتُم بِرُسُلِي**﴾، الإيمان بالرسل معناه الإذعان والتصديق، فمن ميثاق الله تعالى على بني إسرائيل وغيرهم الإيمان برسل الله تعالى بتصديقهم، والإذعان لما يدعون إليه فلا يقبلون بالبعض ويرفضون الآخرين، فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ لأن رسالة الله واحدة، ورسل الله تعالى جاءوا جميعًا بشرع واحد في أصله، وإن اختلف في بعض فروعه، فعدم الإذعان لهم والتصديق بهم تمرد على الله تعالى وتكذيب، فمن يطعهم فقد أطاع الله تعالى، ومن يعصهم فقد عصى الله [2].

والرّكن الرّابع من أركان ذلك الميثاق القدسي: عبر الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿ **وَعَزَّرْتُمُوهُمْ** ﴾ أي قوّيتموهم ونصرتموهم، فذلك فتح باب الجهاد الواجب لنصرة الرّسل، ونصرة الحقّ دائمًا، فالتعزير هو النّصر ويطلق على العقاب المانع من الضّرر، والتّعزير والنّصرة مع التّعظيم وعدم التهجّم عليهم أو الاستهزاء والسّخرية بهم.

والرّكن الخامس: هو ما عبّر عنه الله بقوله: ﴿**وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ وهو الإنفاق في سبيل الله تعالى عندما تحتاج نصرة الحقّ إلى جهاد في سبيله، وإعطاء الضعفاء ابتغاء مرضاة الله تعالى وكذلك

---

(1) انظر: "زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (3074/4)

(2) انظر: "تيسير الكريم الرحمن" – للسعدي (225/1).

القيام بما طالب به من طاعات، بأداء ما عليه من واجب؛ لأنّ من يفعل ذلك ابتغاء مرضاته سبحانه فكأنما أقرض الله قرضًا حسنًا، والله سبحانه سيضاعفه في الأداء له أضعافًا كثيرة[1].

فإذا قام بنو اسرائيل بما يوجبه الميثاق عليهم فسوف يغفر لهم ما ارتكبوا من سيّئات ويستر ما قدموه من أعمال هي سيئة في ذاتها وسيئة لهم ولمجتمعهم وسيجزيهم سبحانه كذلك بادخالهم الجنّات التّي تجري من تحتها الأنهار، وبالمقابل من يجحد بآياته ونعمه وآلائه بعد ذلك الميثاق الغليظ الذي أُخذ عليهم والوعد الأكيد الذي وعدهم الله به فقد بعد عن السّبيل المستوية وسار في متاهات الضّلال التّي لا هداية بعدها، وهذا إنذار من الله تعالى بعد الميثاق لأنه هو الطّريق السّوي، فمن حاد عنه فقد ضلَّ وغوى وقد كانوا كذلك[2].

وكذلك يرشدنا سبحانه إلى البعد عن أعداء الله وعدم اتّخاذهم أولياء، لأن اتّباعهم في النهاية يؤدّي إلى إضلال سواء السّبيل وذلك في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّها الذّين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الحقّ يُخْرِجُونَ الرّسول وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السّبيل** ﴾ (الممتحنة:1).

في هذه الآية يخاطب الله سبحانه المؤمنين بصفة الإيمان لتحريك حرارة العقيدة الدينية في قلوبهم ولحضّهم على الاستجابة لما نهاهم عنه، ويأمرهم ألا يتّخذوا عدوّه –وهم المشركون–،وقد قدّم سبحانه عداوته المشركين على عداوة المؤمنين لهم، لأنّ عداوة هؤلاء المشركين لله أشدُّ وأقبحُ حيث عبدوا غير خالقهم وشكروا غير رازقهم وكذّبوا رسل ربّهم وآذوهم، فاحذروا أيّها المؤمنون أن تعاملوا أعدائي وأعدائكم معاملة الأصدقاء والحلفاء بأن تظهروا لهم المودة فتلقوا إليهم بأخباركم التّي لا يجوز لكم اظهارها لهم بسبب مودتكم لهم، وبعد ذلك يسوق سبحانه الأسباب التّي من شأنها أن تحمل المؤمنين على عدم موالاة أعداء الله وأعدائهم، فهم قد كفروا بما جاءكم على لسان رسولكم –ﷺ– من

(1) انظر: "زهرة التفاسير" – لأبي زهرة (3076/4).

(2) انظر: "تيسير الكريم الرّحمن" – للسعدي (225/1).

الحقّ الذي يتمثّل في القرآن الكريم وهو ما أوحاه سبحانه إلى رسوله -ﷺ-[1]، ولم يكتف هؤلاء الكافرون بكفرهم بما جاءكم من الحقّ، بل تجاوزوا ذلك إلى محاولة إخراج رسولكم -ﷺ- وإخراجكم من مكّة من أجل إيمانكم بالله ربّكم وإخلاصكم العبادة له تعالى، فكلّ هؤلاء الكافرين كانوا متواطئين على تنفيذ هذا الخروج، بعضهم عن طريق التخطيط له، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلي، فهذه الأسباب من أقوى الأسباب وأعظمها للتّشنيع على مشركي قريش ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودّة إليهم [2].

وبعد ذلك يخاطبهم سبحانه بقوله: إن كنتم أيّها المؤمنون قد خرجتم من مكّة من أجل الجهاد في سبيلي ومن أجل طلب مرضاتي فاتركوا اتّخاذ عدوي وعدوكم أولياء واتركوا مودتهم ومصافاتهم، وبعدها يخاطبهم على سبيل العجب والتعجب ممن في قلبه موالاة لهؤلاء الكافرين بعد أن بيّن تعالى لهم ما يوجب قطع كل صلة بهم، فكيف ترسلون إليهم أخبار المسلمين سرًّا بسبب مودتكم لهم فتفعلون ما تفعلون من إلقاء المودّة إلى عدوي وعدوكم، ومن إسراركم بها إليهم، والحال أني أعلم منهم ومنكم ما أخفيتموه في قلوبكم وما أعلنتموه ومخبر الرّسول -ﷺ- بذلك[3].

وما دام الأمر كذلك فكيف أباح بعضكم لنفسه أن يطلع عدوي وعدوكم على ما لا يجوز إطلاعه عليه؟!

وبعد ذلك يختم سبحانه الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره، وأن من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوي وعدوكم أولياء ويلقي إليهم بالمودّة فقد أخطأ طريق الحقّ والصّواب وضلّ عن الصّراط المستقيم الموصل إلى مقصد التوحيد وبالغ في الانحراف والانصراف [4].

بعد هذا نستخلص أنّ إضلال سواء السّبيل لا يأتي هكذا، بل له أسباب مؤدّية إليه، فالإنسان المؤمن المتمسّك بالله والمعتصم بحبله والتارك لكل ما ينهى عنه سبحانه وعن كل ما حذر منه، فهو لا يضلّ الصّراط المستقيم ولا يحيد عنه، أما الإنسان المتّخذ لأعداء الله أولياء والمتّبع لسبيلهم الضّال المضل فهو حتمًا سيضلّ الصّراط المستقيم ويضيع في متاهات الطّريق الموحش المليء بالشرك والمشركين.

---

(1) انظر: "إرشاد العقل السّليم في مزايا الكتاب الكريم" – لأبي السّعود (235/8).

(2) انظر: "الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية" – للشيخ علوان (405/2).

(3) انظر: "تفسير التستري" – للتستري (167/1)، "تفسير القرآن العزيز" – لابن أبي زمنين (375/4).

(4) انظر: "التفسير الوسيط" – للطنطاوي (324/14)، "التفسير المظهري" – للمظهري (259/9).

المطلب الرّابع: اتّباع سبيل الكافرين.

يعدُّ سبيل الكافرين من الطّرق المؤدية إلى الهلاك والدّمار، فسبيل الكافرين هو سبيل الشّيطان، وهو سبيل الكذب والخيانة والانحراف وفعل كل المحرمات، وقد ذمّ الله تعالى الكافرين وبيّن نواياهم السّيّئة تجاه المؤمنين الموحّدين فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الذّين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ (العنكبوت:12).

في هذه الآية يبيّن –ﷻ– ما يزعمه أئمّة الكفر من دعاوٍ باطلةٍ حيث قالوا للذين آمنوا على سبيل التّضليل والإغراء اتبعوا سبيلنا وطريقنا الذي وجدنا عليه آباءنا وهو عبادة الأوثان والأصنام وسوف نحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة إن كان هناك بعث وحساب بمقتضى زعمكم من أثقال ذنوبكم يوم العرض والجزاء، فاطمئنّوا أيّها المؤمنون إلى أنّنا لن نتخلّى عنكم ولن ننقض عهودنا معكم في حمل خطاياكم لو اتبعتمونا فتصيروا يومئذ مخففين بلا وزرٍ ولا ذنبٍ، وهذا غرض من أغراض المشركين ومحاولتهم أن يردّوا المسلمين عن دينهم بالشّك والمغالطة للّذين لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب إمّا لعزتهم وخشية بأسهم مثل عمر بن الخطاب –ﷺ– وإمّا لكثرتهم حيث كثر المسلمون وأعيت المشركين حيلُ الصّدّ عن الإسلام [1].

ويقول الأستاذ سيد قطب: "وقد كان الذّين كفروا يقولون هذا تمشيًا مع قصورهم القَبَليّ في احتمال العشيرة للدّيّات المشتركة والتّبعات المشتركة، يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها" [2].

وقد ردّ الله تعالى زعمهم هذا وأخبر أنّ هؤلاء الكافرين ما هم بحاملين بشي من خطايا غيرهم التّي زعموا حملها يوم القيامة وإنّهم لكاذبون في أقوالهم، وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد حتّى يخرس ألسنتهم ويمحو كل أثر من أقوالهم من الأذهان.

وقد أكّد الله سبحانه كذبهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الذّين اتُّبِعُواْ مِنَ الذّين اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ** ﴾ (البقرة:166) [3].

---

(1) انظر: "التحرير والتنوير" – لابن عاشور (221/2).

(2) "في ظلال القرآن" – (2724/5).

(3) انظر: "التسهيل لعلوم التنزيل" – لابن جزي (123/2).

ويقول ابن عجيبة[1]: "وصفهم بالكذب لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذّين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف" [2].

هذا هو سبيل الشّر، سبيل الخداع والزّور والكذب، سبيل الكافرين، فهؤلاء الكافرون على استعداد تامّ لأن يقوموا بأي فعل ليصدّوا المؤمنين عن دينهم حسدًا لهم على ما آتاهم الله من فضله، فهم لم يستطيعوا أن يأتوهم بالقوة فاتّجهوا إلى اتّجاه آخر، وهو كذب الحديث وقطع الوعود التّي لم ولن يستطيعوا الإيفاء بها، فهؤلاء هم الكافرون وسبيلهم الفاسد.

المطلب الخامس: قطع السّبيل.

يعدُّ قطع السّبيل من الأمور المذمومة التّي حذّر منها الإسلام فهي فعلُ المفسدين في الأرض الناهبين لأموال الناس القاطعين الطّريق عليهم، والنّاشرين للُّرعب في قلوبهم، وقد ذكر سبحانه طائفةً من الناس كانوا يفعلون هذا الفعل القبيح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت:29).

في هذه الآية الكريمة يقول تعالى مخبرًا عن قول لوط –عليه السلام– لقومه: إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النّساء وتقطعون السّبيل فتنهبون المال وتروّعون المارة وتعتدون على الرجال في الفاحشة كرهًا، وهي خطوة أبعد من الفاحشة الأولى إلى جانب السلب والنهب والإفساد في الأرض، وفضلًا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات في مجالسكم الخاصة وفي نواديكم التّي تتلاقون فيها، فكانوا يأتونها جهارًا وفي شكل جماعي متفقٍ عليه لا يخجل بعضهم من بعض، وهي درجة أبعد في الفحش وفساد الفطرة والتبجح والرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح.

وقيل: " المعنى تتعرضون لأبناء السّبيل بالفاحشة حتّى انقطع الناس عن طريقكم، و روى أنّهم كانوا كثيرًا ما يفعلونها بالغرباء ويجبرونهم عليها، أو تقطعونها بالقتل وأخذ المال وكانوا يفعلون ذلك

---

(1) هو أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الأنجري، مفسر صوفي مشارك من أهل المغرب، ولد سنة 1160هـ، وتوفي سنة 1224هـ، ودفن ببلدة أنجرة، له كتب كثيرة منها أزهار البستان. (انظر: "الأعلام" – للزركلي (245/1).

(2) "البحر المديد" – (290/4).

لكيلا يدخلوا فى بلدهم ولا يتناولوا من ثمارهم، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث" [1].

فنبيهم –عليه السلام– قد وصفهم بأوصاف كل صفة أقبح من سابقتها، والباعثُ لهم على ارتكاب تلك المنكرات هو انتكاس فطرتهم وفساد نفوسهم وشذوذ شهواتهم [2].

ويقول الأستاذ سيد قطب: "والظاهر أن لوطًا –عليه السلام– أمرهم في أول الأمر ونهاهم بالحسنى، وأنهم أصرّوا على ما هم فيه فخوفهم عذاب الله وجبههم بشناعة جرائمهم الكبرى"[3].

فكان جوابهم على نبيهم –عليه السلام– في غاية التبجح والسفاهة وهو أنهم قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره ائتنا يا لوط بعذاب الله الذي تتوعدنا به إن كنت صادقًا في دعواك أنّك رسول وفي دعواك أن عذابًا سينزل علينا بسبب أفعالنا هذه التّي ألفناها وأحببناها، فالظاهر أن هؤلاء المجرمين قد قابلوا نصح نبيهم بالاستخفاف والاستهزاء وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه [4].

من خلال ما سبق يتّضح أن قطع السّبيل من الأفعال التّي لا يفعلها إلا كلُّ كافر بالله جاحد لنعمه كافر برسله، فليس هناك مؤمن يتّبع أمر ربّه يقوم بهذا الفعل الشنيع وهو قطع الطّريق على الناس وترويعهم، لأنّ هذا ليس من الدّين القويم، فنشر الأمن والأمان في كل مكان هو رسالة الإسلام الحنيف فالواجب على كل مؤمن أن يتبع أمر ربّه ويبتعد عن أمر الشيطان الهاوي به إلى النيران.

المطلب السّادس: عدم الإنفاق في سبيل الله.

إنّ عدم الإنفاق في سبيل الله لهو البخل بعينه، حيث يستحقّ الإنسان البخيل أن يوصف بهذا الوصف الشّنيع، فهو بالإضافة لبخله على نفسه فهو يبخل على دينه ومجتمعه وأمّته من مال الله، وقدم ذمّ سبحانه الذّين يُدعون إلى الإنفاق ولكنّهم لا ينفقون أموالهم بخلًا في قوله تعالى: ﴿ **هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء**

(1) "روح البيان" – للإستنبولي (465/6).
(2) انظر: "الهداية إلى بلوغ النهاية" – لمكي بن أبي طالب (5620/9).
(3) "في ظلال القرآن" – (2733/5).
(4) انظر: "التفسير الوسيط" – لطنطاوي (32/11).

﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد:38).

في هذه الآية يخاطب الله تعالى المؤمنين ويقول لهم: ها أنتم أيّها المؤمنون المخاطبون المدعوّون للإنفاق في سبيل الله أي في الجهاد والزكاة وفي طريق الخير ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾ أي: فبعضكم يبخل باليسير من المال ولا يستجيب لدعوة الإنفاق ومن يبخل في الإنفاق فإنّما يمنع نفسه الأجر والثواب ببخله ويعود وبال ذلك عليه، فإنه بالبخل يتغلب العدوّ عليكم فيذهب عزّكم وأموالكم وربّما أنفسكم.

والله هو صاحب الغنى المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم، فهو الغني عن العباد وهم الفقراء إلى الله وما عنده من الخير والرحمة فهو سبحانه لا يأمر بالإنفاق لحاجته ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب.

ثم أبان الله تعالى سنته في الاستبدال بقوم قومًا آخرين أفضل منهم إن أعرضوا عن حمل الأمانة فقال محذرًا ومذكرًا ومهددًا إن تعرضوا عن الإيمان والتقوى وعن طاعة الله واتّباع شرعه يستبدل قومًا آخرين يكونوا مكانكم هم أطوع لله منكم فيكونوا سامعين مطيعين لله ولأوامره وليسوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى وفي البخل في الإنفاق في سبيل الله [1].

وشرط سبحانه في الآية الاستبدال تولّيهم، لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل قومًا غيرهم، وأرشدت الآية إلى عدّة أمور جديرة بالذكر وهي :

1.من بخل بتقديم شيء من ماله في سبيل الله كالجهاد وطرق الخير، فإنّما يبخل على نفسه، فيمنعها الأجر والثواب.

2. الله هو الغنيّ عن عباده وعن كل ما سواه، فليس بمحتاج إلى أموالهم، ولكنّ العباد أنفسهم هم الفقراء إلى الله –ﷻ– ، لتحصيل الثّواب والفضل الإلهي، فلا يقولوا: إنا أيضًا أغنياء عن القتال وعن

(1) انظر: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" – للثعالبي (244/5)، "التفسير الواضح" – لمحمد محمود حجازي (475/3)

معونة الفقراء، فالواقع أنّه لا غنىً لهم عن ذلك في الدّنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا، فإنّه لولا القتال لقتلوا، بغزو الكفار واجتياح بلاد المسلمين، والمحتاج إن لم تدفع حاجته، قصد الغني وأخذ ماله، لا سيّما أن الشارع أباح للمضطر ذلك، وأما في الآخرة فالأمر ظاهر حيث يكون كل إنسان فقيرًا إلى فضل الله ورحمته، وفي حال الحساب، وهو موقوف مسئول في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنونٌ.

3. أنذر الله تعالى عباده وحذّرهم من إهمال حمل المسؤولية والقيام بأعباء التكاليف، فهم إن أعرضوا عن الإيمان والجهاد والتقوى، استبدل قومًا غيرهم يكونون أطوع لله منهم، ثم يكونون أفضل وأمثل وأحسن منهم، وتلك هي سنة الله في خلقه، وليسوا أمثال المستبدل بهم في البخل بالإنفاق في سبيل الله. [1]

بعد هذا نجد أنّ البخل آفة لا بدّ أن يبتعد عنها العبد المؤمن، فهي ليست من صفات المؤمنين الموحّدين الطّائعين لأوامر الله المجتنبين لنواهيه، فلا يحصد البخيل إلا الذّم وهلاك ماله في الدّنيا، والعقاب في الآخرة وهو أشدُّ وأعظم.

المطلب السّابع: اتّباع السّبل.

يعدُّ اتّباع السّبل الضّالة المضّلة المؤدّية إلى الهلاك وترك سبيل الله الواضح المستقيم من الأمور التّي أكّد عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة حيث بيّن تعالى في كتابه العزيز وفي سنّة رسوله الكريم –ﷺ– السّبيل الواحد الواجب اتّباعه من بين السّبل المتعددة وحذّر من الحياد عنه وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام:153).

في هذه الآية يبيّن سبحانه منهج الحقّ وطريق الاستقامة، لأنّ هذا هو الطّريق المستقيم، فاتّبعوه ولا تتّبعوا الطّرق المختلفة ذات المذاهب والأهواء والبدع والضّلالات، فيؤدي بكم إلى التفرّق والاختلاف، والانحراف عن دين الله الحقّ، ومنهجه الأمثل، ففي قوله:﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾: أمر الله

(1) انظر: "التفسير المنير" – للزحيلي (140/26).

المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتّفرقة، وأخبرهم أنّه إنّما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله [1].

"وقد أفرد سبحانه الصّراط المستقيم وهو سبيل الله، وجمع السّبل المخالفة له، لأن الحقّ واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة، والبدع الفاسدة، والشبهات الزائفة، والفرق الضالة وغيرها" [2].

فلا تحيدوا عن النّهج الذي رسمته لكم لأنّه هو الطّريق المستقيم الموصل إلى سعادة الدّارين واتّبعوه ولا تتّبعوا الطّرق الباطلة التّي نهاكم الله عنها حتّى لا تتفرقوا شيعًا وأحزابًا وتبعدوا عن صراط الله السّوي، فأمركم الله أمرًا مؤكدًا بذلك لتتجنّبوا مخالفته، وختم الآية بأن اتّباع سبيل الله وترك اتّباع السّبل هو الذي وصّاكم الله به لعلكم تتّقون اتّباع الكفر والضّلالة وتعملون لما جاءكم به هذا الدّين.

ويقول الزّحيلي: "وأرشدت الآية إلى أنّ كل ما بيّنه الرّسول –ﷺ– من دين الإسلام هو المنهج القويم، والصّراط المستقيم، وأرشدت أيضًا إلى وجوب الاتّحاد بين المؤمنين والتّلاقي بينهم على ما أمر الله به، والتحذير من الاختلاف والفرقة، واتّباع غير سبيل الله، وأنّ الله أهلك الأمم السابقة بالمراء والخصومات، ودلّت الآية أيضًا على أن كل ما كان حقًا فهو واحد." [3]

بعد هذا يتبين لكل إنسان عاقل السّبيل القويم الواضح من السّبل المتعددة المتفرقة التّي لا تؤدّي بالإنسان إلّا إلى مهاوي الردى، فهو سبيل للشيطان وأعوانه وسبيل لكل كافر متّبع له.

---

(1) انظر: "التفسير الوسيط" – لطنطاوي (222/5)

(2)"المنتخب في تفسير القرآن الكريم" – لجنة من علماء الأزهر(201/1).

(3)"التفسير المنير" – (106/8).